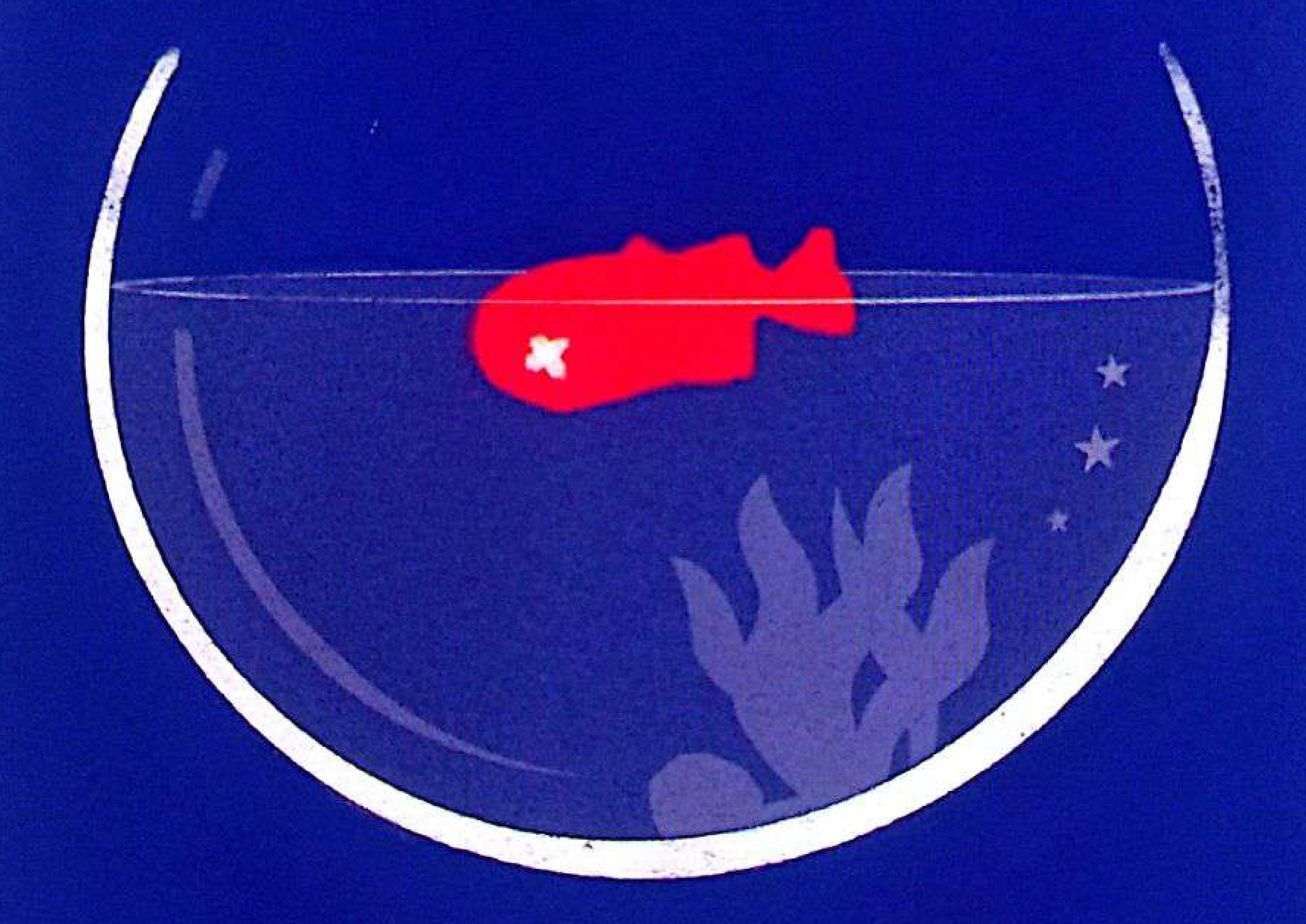
بثينة العيسى



دار خولة



الكاتب: **بثينة العيسى**

عنوان الكتاب: **دار خولة**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-51-3

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024 - 3000 نسخة

الطبعة الثانية - سبتمبر/ أيلول - 2024 - 3000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com

takweenkw

takween_publishing

TakweenPH

www.takweenkw.com

«كأنّي في لسانِ الدَّهر لفظٌ

تضمَّن منه أغراضًا بِعادا

يكرِّرُني لِيفهَمَني رجالٌ

كما كرَّرتَ معنًى مُستعادا»

أبو العلاء المعرِّي

الأمرُ الذي تكرههُ خولة أكثر من الشَّيخوخة هو التَّصابي، والأمر الذي تكرهُهُ أكثر من التَّصابي هو أمريكا.

في صباح ذلك اليوم، قرّرت خولة أنَّ «**التَّصابي والتَّأمرك أمران متلازمان**»، والحقُّ أنها تجد التَّأمركَ ممزوجًا بكل ما لا تحبُّه، لذا عزمت على إظهار آثار شيخوختها، مثلَ ميدالياتٍ فخريَّة، وراحت تتخيَّل، أمام المرآةِ، ما ستبدو عليه لو أنها عادت إلى الشَّاشة، بشعرٍ أشمطَ، وغضونٍ حول الفم، وكيسٍ جلديٍّ متدلٍّ من الرَّقبة، وجيوبٍ ليلكيةٍ تحت المحجرين. قد ينتبه البعض إلى الخشونةِ الترابية في صوتِها، بالمقارنة بآخرِ ظهورٍ إعلامي لها، قبل سبع سنوات.

ولأنَّ فريق الإعداد يعرفُ أنَّها ليست من النَّوعِ الذي يُفجعُ أمام سؤال: كم عمركِ؟ فهي تتوقع سؤالًا كهذا، آملة ألا يخونها صوتها إذا أجابت بأنَّها تجاوزت الخامسة والخمسين منذ شهرين، وأنها قرَّرت أن تشيخ بكرامةٍ، رغم أنَّ «**الشَّيخوخة في جوهرها إذلالٌ وئيد**».

ما تزال خولة قادرة على العيشِ مستقلَّة، إلا فيما يتعلق بتبديلِ اللَّمبات المحترقة وفتح البرطمانات، وقد وجدت أنَّ البيتَ يتوحَّشُ أكثر ما يتوحَّش

في الصَّباح الباكِر، وفي آخر اللَّيل.. عندها تكتشفُ أن وراء الصمتِ صمتًا ثانيًا، وتحدسُ أن وراء الصَّمت الثاني صمتًا ثالثًا، ورابعًا وعاشرًا ومئةً وألفًا. تكتشفُ خولة متاهة الصَّمتِ -وهي متاهة مؤلَّفة من غيابِ اللغةِ المحض، لا من قصورها- وتتحسَّسُ جدرانها كل صباحٍ وكل ليلةٍ، عندما تأكلُ وحيدة، إذ يندر أن يرغب أيٌّ من يوسف وحمد في الأكل في موعد محدد، فكلاهما يفضِّل أن ترسل صينية الطعامِ إلى غرفتهِ في الوقت الذي يشتهيه، وكان وجودهما في البناءِ نفسه -المدعوُّ بالبيت- يملؤها مرارة، لكنها تستأنسُ بالاحتمالات، تعوِّل عليها؛ أن يمرَّ أحدهما بها صدفة، ويراها جالسة أمام التلفزيون مع علبة الزبادي وأصابع الخيار، ويقرّر أن يأخذ قضمة. لهذا السَّبب تمتلئ طاولاتها، طوال العام، بحاويات الشوكولاتة والفستق الحلبيِّ وحلوى راحة الحلقوم؛ «**فخاخٌ منصوبة لأمومة معطّلة**»، شيء لا تجسر على قوله في البرنامج.

وإذا فكّرتْ في الأمر قليلًا، فستجد أنها قد تشاركت مع يوسف قضمتينِ في الأسبوع الماضي، وأن حمد أيقظها من نومِها قبل يومين وهو يردّد: «يمه يوعان!»، وتتذكَّر كيف خبَّت لتعدَّ له شطيرة لبنة مع الزعتر الأخضر وكانت الساعة قد قاربت الواحدة بعد منتصف الليل، جالسته ربع ساعةٍ كاملة، وراقبته مسرورةً وهو يمضغ، وكانت تملّح

له شرائح الطماطم وتدسُّها في فمِه، الأمر الذي يؤكد نظريتها: يجب أن يكون المرءُ جاهزًا للفرص عندما تأتي، وأن يعوِّل على الاحتمالات، لكنها تريدُ المزيد، وهي في كل صباح، عندما تعجز عن فتح برطمانات الزيتون الفلسطيني والعسل اليمني والمكدوس ومربى الورد، تحسُّ ببرودة مفاجئة في عظامها، وتتساءل «**إن كانت الشّيخوخة والوحدة أمرين متلازمين**»، لكنها لم تصبح عجوزًا ميؤوسًا منها، ليس بعدُ، فهي ما زالت قادرة على صعود الدَّرج متظاهرةً بأنَّ قلبها لم ينخلع من مكانه، ولم تفقد أيًا من أسنانها بعدُ، عوضًا عن كونها تتبضَّع وحيدة؛ تشتري السَّمك الإيراني الطازج و«نصف ذبيحة - خروف عربي» من الجزّار، والخضراوات الورقية من المزارع المحلية، وتحرصُ على شراء التُّوت الأزرق والشَّمندر وبذور الكتَّان وحليب اللَّوز غير المحلَّى وكلِّ الأشياء التي زحفت إلى قائمة تسوُّقها في السَّنوات الأخيرة؛ مقادير احتياطية لولائم متخيّلة، نابضة وعامرة بالمسرَّات.

تحلمُ خولة بالولائم عندما تخرجُ للتبضُّع، تفكِّر فيها طوال الوقت. تتخيَّلها حين تقرأ، وحتى وهي تصلِّي. لكنها في الأغلبِ تأكل وحيدة، لأنَّ «**البيوت أضحت فندقيّة إلى حدٍّ بعيد**»، ولأسباب أخرى تتعلَّق بشخصها. لذا لم تنَم ليلة أمس. تململت في سريرها ساعاتٍ، ثمَّ حاولت أن تقرأ كتابًا يجلبُ

النعاس، لكنها اندمجت في الموضوع وصارت تمدُّ الخطوط تحت السُّطور وتدوِّن الملاحظات على الهوامش. أطبقت دفتيّ الكتاب، أطفأت الأباجورة، بحلقت في الظلام مردّدةً أذكار النوم، قرأت المعوذتين وآية الكرسي وما تيسَّر من سورةِ الرحمن، ثم جرَّبت تمارين التَّنفس التي يقول الجميع إنَّ لها مفعول السحر، لكنهم يبالغون في شأن كل شيء هذه الأيام. تعرف خولة أنَّ المبالغة ليست اختراعًا أمريكيًا، «**لكنها قطعًا استفحلت هناك، منذ أن كانت هيروشيما هي الرد على بيرل هاربر**». حتى حبة الـ ٥ غرام من الميلاتونين لم تنفع، فانتهت إلى خيارٍ لا تحبُّه، لأنه بمثابة إعلان عن فشلها في عيشِ يومٍ عادي، مثل امرأة جليلة غير مبالية بالتَّوافه. فتحت الجرَّار، تناولت نصف حبة من شريط حبوب «الزاناكس»، ونامت بعد أن صلَّت الفجر. استيقظت في السابعة، مشدودة الجذعِ مكهربة، في رأسها صورٌ لطبخات وقوائم مشتريات وخيالاتٌ جذلة لعشاءٍ عائليٍّ حقيقي.

ستحظى خولة أخيرًا بعشاء عائليٍّ، مثل «**أسرة سعيدة في فيلمٍ هوليوودي عن عيد الشُّكر**»، وأحسَّت بالتناقض ينخر عظامها وهي تقرُّ بأنَّ تلك الصُّورة البرَّاقة لعائلةٍ أمريكية تتبادل الأنخاب حول ديكٍ روميٍّ محمَّر، بكنزات خريفية وكؤوس كريستالية شبه ممتلئة بالنبيذ، تعجبها جدًّا. ثمَّ

طمأنت نفسها بأنَّ كراهيتها لأمريكا ينبغي ألَّا تخلو من استدراكات، **«حتى تصبح موقفًا، لا مجرّد تعصُّب»**. كان أكثر ما تنتبهُ له خولة في الأفلام الأمريكية هو المطبخ وغرفة الطعام، ومن شيمها أن تقطع المشاهدة عدة مرّات، لتلقي نظرة على مطبخها وغرفةِ طعامها، متسائلةً أين تكمن المشكلة.

عندما اتصلت بها المُعِدَّة قبل أيام -فتاة **«نطّاطة ولحوح»** اسمها رندة- قالت إنَّ برنامج «تفاصيل»، بخلاف البرامج التي سبق لها الظهور فيها، مهتمٌّ بما أسمتهُ: «جانبها الإنساني»: الخاصرة الرُّخوة في حياةِ خولة، إذا أخذنا بعينِ الاعتبار توحُّشها المزمن ونزقها المتزايد وسمعتها الضَّاربة كامرأةٍ مولولة. وتساءلت إن كانَ في الإمكان، عبر جانبها الإنساني هذا **«إذا سلَّمنا بوجوده»**، أن تؤخذ، مرةً واحدةً **«على محملِ الجد»**. سيطلبون مداخلاتٍ من أشخاص في محيطها الاجتماعيّ، وكلمة محيط هنا مضللة، فليس لديها محيط، بل حوض أسماكٍ بالكاد. فكَّرت في بعض زملائها من الجامعة، وفي سكرتيرة القسم التي **«تصرُّ أنَّ المسخّن لا يعدُّ إلا على خبز الطابون»**، ثم فكَّرت في أولادها الثلاثة، وأنَّها لو سُئلت عنهم، ستراوغ مثل السِّياسيين المتمرّسين لتريح الحشريين من سكَّان الكوكب مما لا تجدي معرفته، وتقول إنَّهم «خلقوا لزمانٍ

غير زمانكم» أو تستعير كلمات جبران الصَّاحة، **«إنجيل العقوق المقدس»**: «أولادكم ليسوا لكم، أولادكم أبناء الحياة»، لكنها تعرفُ أنَّ هذا كلامٌ غير صحيح، فالواقع أنَّ **«أولادكم ليسوا أولادكم، أولادكم أبناء النّظام»**. ستعرفُ البلادُ أنَّ كل تصريحٍ صبّته في الحطِّ من الأجيال الجديدة منشؤهُ فشلها كأم. لكن أيُّ فرصة كانت لديها لكي تنجح أصلًا؟ لقد حُسمت المعركة منذ زمن طويل، لأنَّها عندما انتبهت لوجود معركة، كان النظام مشغولًا بجمع الغنائم: أطفالها الثلاثة.

«غوير، وزوير.. واللي ما فيه خير».

غنائم النظامَ.

في مكالمتهما الهاتفية، قالت رندة إنَّ الناس «يستحقون معرفة د. خولة سليمان على نحوٍ أعمق»، وهو ما جعل دَمها يفور، **«فالنّاس لا يستحقون أيّ شيء!»**، لا سيما منها. ثمَّ راحت المعدَّة، بشيءٍ من **«السّذاجة المراوغة»**، تتحدث عن توقها إلى التعرف على خولة الأم والابنة والزوجة. بل إنَّها لجأت إلى الحُجّة المبتذلة التي يستخدمها كل من يحاول النفاذ إلى مثقفٍ يعاني إحساسًا بالإهمال: *السّاحة تفتقدُ صوتكِ*، في تلميحٍ **«خبيثٍ ومدروس»** إلى ضرورةِ وجود المثقَّفِ في الميدان، وهو ما تتعفَّف عنه خولة منذ سبع سنوات.

نفضت عنها أفكارها لتتخيَّل ما سترتديه على العشاء: «درَّاعة» قطنية بيضاء مع شال بشمينا فيروزي، حليٍّ أمازيغية مُعشقة بالمرجان، وشِبشب جلديٍّ مدبَّب. تساءلت إن كانت تبالغ، لكن الفرصة قد تسنح -إذا سار كل شيءٍ على ما يرام- لالتقاط صورةٍ عائلية، فهي لا تتذكر آخر مرّة التقطوا فيها صورةً كهذه، وكل امرأةٍ في عمرها تتباهى بصورها العائلية على الإنستغرام وفي مجاميع الواتسآب. تساءلت إن كان الأولاد سينشرون الصورة في حساباتهم، وتخيَّلت ما سيكتبه كل واحدٍ منهم أسفل الصورة: «عشاء ملوكي مع الوالدة» أو «تسلم إيدچ يالغالية»، وكثير من الكلام المعسول، رغم أن الثلاثة قد عمدوا، في السَّنوات السَّبع الأخيرة، إلى التنصّلِ من كل ما يربطهم بها أمام العالم.

إذا سار كل شيءٍ على ما يرام، فستُلتقَط صور عائلية. تسارعت ضربات قلبها، حاولت أن تمنع نفسها من الإفراط في التفاؤل، «**فليس الأمر مهمًّا**»، ليس بأهميَّة أن يقضي الجميع وقتًا طيبًا إلى درجةٍ تجعل الأولاد «**يطالبون بعشاءٍ آخر**»، أو ربما، بعشاء أسبوعي، شهري، أو حتى كل شهرين. لا مشكلة، وبما إنَّ رمضان على الأبواب، فستقترح خولة «**أن نفطر معًا**»، وستكون تلك مناسبة مثالية للمِّ الشمل، بل ولاستعادة ناصر، ولم تكتفِ بتخيُّل الأولاد يتقاسمون كعكة التمرِ والجوز، أو تشريبة

اللحم مع خبز الرُقاق واللومي الأسود، والجريش المنهنه المزيَّن بالزبيبِ والبصل المكرمَل، بل ذهبت أبعد في خيالاتها ورأتهم، بتلك الدَشاديش البيضاء النَّاصعة، عائدين من صلاة الجماعةِ في المسجد، كلٌّ يضمها بذراعهِ، مثل إعلانٍ تجاريٍّ مبتذل لمسحوق غسيل..

وصل ناصر إلى البيتِ قبل الموعد بعشر دقائق، لكنَّه قرَّر ألا يدخل إلا في الوقت المحدَّد، حتى لا تفسِّر خولة وصوله المبكر على نحوٍ مغلوط؛ أنه يحسُّ نفسه في بيته، وأنه يمتلك شرعية المجيء في أيِّ وقت، وأنه، برغم كل شيء، ما زال ولدها.

كان يحبُّ الانضباط في المواعيد، ويراه ضروريًا لتصدير صورةٍ لائقةٍ عن شخصه. ففي مكانٍ لا يُنظر فيه إلى الزمن كشيءٍ ناضبٍ وفي أهميَّة المال نفسه، يمكن أن تخرج الأمور عن السَّيطرة، ويستيقظ المرءُ من نومه يومًا ليكتشفَ أنه في الثلاثين، وأنه أضاع حياته.

انقبضَ قلبه.

جالسًا في سيارته، مسح بعينيه واجهة البيتِ القديم. كانت الإضاءة الأرضية تبثُّ نورًا واهنًا على النَّخلة وزُهيرات الأكاسيا ومتوالية من شتلات المشموم. لاحظ زوجين من الجهنميَّة يُحاذيان السور. لم يكونا هنا عندما جاء آخر مرَّة، في رمضان الماضي. غاضَ قلبه في صدره، فما زال يذكرُ تلك الزيارة المسرحية التي تظاهر فيها بثلاثة أمور: أنه صائم، وأنه يصلِّي، وأنه يحبُّ خثرة السَّمك.

اضطر يومها إلى ارتداء الدشداشة، وقد أعاقت

حركته في كلٍّ لحظة، وأحسَّ بأنه حبيس في داخلها. رافق أخويه إلى المغسلة بعد الأذان، وجاهد ليستذكر الخطوات الصَّحيحة للوضوء، اختلس النظر إلى يوسف لمعرفة الخطوة القادمة، والكيفية الصحيحة، لكنه عندما انتهى من الاستنشاق ثلاثًا كان يوسف يمسحُ رأسه وأذنيه. غسل ذراعيهِ قبل وجهه، ومسحَ على جوربيه موحيًا بأنه قد صلَّى العصر في بيته، الأمر الذي رسم ابتسامة ساخرة على شفتي أخيه.. لم يمتلك يوسف قط فضيلة عدم التدخل فيما لا يعنيه، ولا فروسية التغاضي عمَّا يعرفه، ورغم تكتُّمه الظاهر فإنه أشعرهُ دائمًا بأنه مكشوف الظهر، عارٍ وأعزل. بمرور السنوات امتلك يوسف أحقية أن يلعب دورَ الابن البِكر، ورجل البيت، وقد أسكره منصبه الجديد إلى درجة أنه طبطبَ على كتفيّ ناصر مشجِّعًا وهو يجرجره معه إلى المسجد.

رافق ناصر شقيقيه إلى المسجد قبل أن يتسنَّى له ملء بطنه؛ مجرد تمرٍ ولبن، وهو لا يحبُّ التمرَ ولا يحبُّ اللبن. كانت السَّجائر التي دخنها في ذلك النَّهار، متبوعة بغسول الفم والعلكة، قد ساهمت في تقلُّب معدته. وكان الهواءُ في فضاء المسجد مثقلًا برائحة الأقدام المتعرقة، ودهن العود، والغبار الطبشوري، والعُزف المتكتم لسجاجيد الصلاة، وفوعة الطبيخ الآتي من مائدة الإفطار الممدودة

في الحوش. عندما عاد إلى إفطار خولة -شوربة الشعرية وكفتة الطحينة وخثرة السَّمك وثلاثة أنواع من السمبوسك ورقاقات الجبن- فقد شهيّته ولم يأكل.

لم تترك له خولة فرصة للتهرُّب من عشاء الليلة، فقد اتصلت به قبل أخويه وسألته عن الموعد الذي يناسبه. الأكيد أنَّ حمد سيتملَّص من الدَّعوة، إذ بقدر ما تبذل والدته من جهدٍ كي ترسم صورةً لأسرة «**طبيعية**» في أجواء مغتبطة من دون مبرر، بدا كل شيءٍ مفتعَلًا حتى لصغيرها المدلل.

يريد ناصر أن يتقرَّب إلى شقيقهِ الأصغر، الذي لا ينتمي إلى طفولته بالمرَّة، وهو ينتظر مناسبة سانحة لكي يستشعر حمد أهميَّة استشارته في أمرٍ يخصُّ الجامعة أو السَّيارات أو المواعدة، ولن يتردَّد في خلق صداقةٍ معه، أو بالأحرى: إنقاذه من أمه، رغم أن الفتى لا يبدو ساذجًا جدًّا، فهو رغم يفاعتهِ يعرفُ أنَّ أمَّه مصدر إحراجٍ كبير، وأنَّها بدت كالمهرِّجة على التلفزيون وهي تولولُ بشأن ما أسمتهُ «**الانمساخ الجمعي**» لجيل الشباب، ويعرفُ أيضًا، مثل جميع أفراد هذه العائلة، أن كلَّ كلمةٍ قالتها عن «**الجيل المشوّه بسبب الاستعمار الناعم**» كانت تقصد بها ناصِر دون غيره، إلا أنَّ أحدًا لم ينبس بكلمة.

تذكَّر عيد ميلاده الوشيك وأحسَّ بالفراغ يثقل

في أعماقه. أرسل عينيه إلى مدخل البيت، إلى «دار خولة» كما أسماها أبوه، كأنه عرف أنّ القدر قد أضمر له رحيلًا مبكّرًا، وأنّ زوجه ستتربّع في قلب الدار، مثل عنكبوت الأرملة السوداء: متوحّدة وسامّة. سرح في عرائش «ستّ الحسن» التي تؤطر المدخل الخشبيّ، متذكرًا يوم فراره، دون أن يساوره شكّ أنّه الناجي الوحيد..

٣

كانت خولة ما تزال واقفة بين القدورِ والقناني وحاوياتِ البهارات، تحمِّص الصَّنوبر في المقلاة.

تضوَّع المطبخ بالأبخرة التي شكَّلت غُطيطة ضباب: مزيجًا من فوعةِ البطاطا الحلوة، والدُّولمة مع محشي البَصل وريَش لحم الضَّأن، وفتَّة الباذنجان مع الحمَّص. لم تمنع نفسها من إعداد طبقِ «بلاليط» في اللحظة الأخيرة، وتتويجِه بشعيرات الزَّعفرانِ وببيضةٍ مقليَّة. لم تكن جاهزة تمامًا، لم ترتدِ درّاعتها وشالها، وقد اتسعت مسامُ وجنتيها وأحسَّت بشعرها دهنيًا ومضمَّخًا برائحة القلي. لقد أهدرت كثيرًا من الوقت، لا لسبب سوى تلك الخيالات القهرية التي ظلت تغشاها طوال اليوم.

خفق قلبها لمَّا رأت ناصر، وخطرَ لها، لوهلةٍ، أن تفرد ذراعيها وتضمَّه، لكنَّ جذعها تيبَّس مع كل خطوةٍ خطتها تجاهه، خاصَّة عندما أقفلَ وجهه متصنِّعًا ابتسامة، واكتفى بقبلتين باردتين على خدَّيها. امتلأ جوفها مرارةً، إذ لم يحدث مرَّة أن قبَّلها على جبهتها، كما هو جديرٌ بأم.

سيتمُّ ناصر عامه الثلاثين بعد أسبوع، وخولة تعرفُ أنَّه يكره أعياد الميلاد، لأنه يريد أن يبقى يافعًا إلى الأبد. لم يكن يتورَّع عن حقن وجهه

بالبوتكس والفيلر وشحوم مؤخرته إلى درجة تستفزُّها -هي بتلك الغضون التي تتباهى بها كأنواط شجاعة- ناهيك عن كونه يحدِّد عوارض لحيته بالليزر ويزجِّج حاجبيه بالملقط، ويرتدي ثيابًا بالكادِ تليق بصبيٍّ في العاشرة. لكنه على كل حالٍ عيد ميلادٍ آخر، وناصر مستعدٌّ للاحتفالِ به مع الجميع، باستثنائها هي.

كان أقصى ما تستطيعه هو إرسال طاقة وردٍ إلى شقَّته التي يقطنها وحيدًا، مشبوهًا ونائيًا، في المكان الذي لا يسمح لها بزيارته. ولأنه ما زال عازبًا، تعرفُ خولة أنَّ عقد الإيجار المبرم بينه وبين صاحب العقار قد تمَّ باسم أحد أصدقائه المتزوجين. لقد أزيحت خولة إلى هامشٍ بعرضِ سنتيمترٍ واحد في حياةِ بِكرها، وصارت تحتاجُ إلى اختراع الضَّرورات كي تراه، وتقبِّل خدَّيه كالغرباء.

لم يكن للأمرِ علاقة بما حدث قبل سبعِ سنوات، أو بمواقفها «**العلنية المخزية**»، وحديثها -الذي بدا كوميديًا للجميع باستثنائها هي- عن تحوُّل «**الهُويَّات إلى موادّ مُتحفية**»، وكل تلك الاستعارات التي سكَّتها لتتحوَّل إلى «ميمات» وملصقات ومصادر ترفيه لشعب يعاني من فائض الوقت، لكنه استثمر اللقاء في قطيعةٍ دامت قرابة عامين، وعندما عاد إلى التَّواصلِ على مَضض، ربما بناءً على مشورة مُعالجته النَّفسية -«**هي امرأة لا بد،**

وبيضاء قطعًا»- لم يكن الشَّخص نفسه، وتصرَّف كما لو أنه قد «**شُفيَ منها**».

جلسَ إلى المائدة، أمام شذَات الكزبرة والنعناع، فطلبت منه «**أن يتكرَّم**» وينتفَ لها الأوراق. كان يرتدي بلوڤر أسود طبعت عليه صورة قردٍ يضعُ قبَّعة حمراء مقلوبة. باعدَ بين ساقيه، فارتفع الشورت البرتقالي إلى نصفِ فخذيه المشعرتين الشَّحيمتين، وجاش الغثيان في أعماقها، لكنها تعرف أنَّها لم تعُد تتمتع بصلاحيةِ الاعتراض على ما يليق وما لا يليق. ليس فقط لأنه لا يسمح لها أن تكون أمَّه، بل لأنَّ «**خوارم المروءةِ من مخلَّفات الماضي**»، وهي لا تريد كسر الهدنة الواهنةِ بينهما.

عادت تحدِّقُ إلى المقلاة، خرج صوتُها ميتًا:

- شخبارك يُمَّه؟ شلون الشغل؟

- تمام.

أجاب، دون نيَّة استفاضة.

وتساءلت إن كانَ في هذا العالم أمَّهات مثلها، يتلصَّصن على أخبار أبنائهن وبناتهن بأسماءٍ مستعارةٍ على الإنستغرام.

في مكانٍ ما في أعماقها، كانت تعرفُ أنه لن يسامحها على ما قالته عن «**الجيل الذي يسمِّي النزق تفكيرًا نقديًا، ويتباهى بجهله المركَّب مثل**

شهادةٍ من هارفارد»، حتى لو كانت تتحدث من واقع خبرتها كأستاذة فلكلور، لكنه يعلم كما تعلم، أنَّ كلَّ كلمةٍ قالتها في ذلك اللقاء جاءت من صميمِ جرحهما المشترك.

حاولتْ أن تفتعل الحديث في موضوع يهمُّه: «يقولون البورصة نازلة»، فهي لا تعرف بأيِّ شيءٍ عساها تحدّثه؛ موظف في شركة استثمارية، ومسوِّق محتوى في أوقات الفراغ، يكرِّس جل وقته للتعريف بفرصِ الاستثمار الجديدة، والعملات الرقمية -«**يخت افتراضي؟ عقار افتراضي؟ أي هراء؟»**- إضافة إلى تلك المنشورات التي يفترض أن تصبَّ في **«تطوير الذات»**، وهو ما لم تتلمّس ثماره قط. ابتسم نصف وجهه، نصفه فقط، رمقها بعينين متهكِّمتين ثم طأطأ، وقال إنه شاهدَ في غرفةِ الجلوس حوضَ أسماكٍ بلا أسماك.

تنهَّدت خولة:

- ماتوا.

متنَ واحدة بعد أخرى، فهي لم تحظَ بالأهليةِ الكافية لتحافظ على أسِماكها، واكتشفت، متأخرة جدًا، أنَّ بعضها قد التهمَ البعضَ الآخر، رغم أن البائع زعم أنَّها اختارت أنواعًا قادرة على التلاؤم. قرَّرت أن تُبقي على الحوض، وتملأه بالأحجارِ والنباتاتِ المائية والطحالب القزحية، وأن تكون

قنوعة بما يمنحه إياها الحوضُ الفارغُ من إحساسٍ مهدِّئٍ وفقاقيع، رغم كل ما يوحي به من هجران.

لم يعلِّق ناصر على قصَّتها التراجيدية الصغيرة، كأنَّ الأمر متوقَّع، وبدا أنَّ كل ما يقوله هو كلامٌ فارغ للتمهيدِ لكلامٍ غير فارغ. غيَّر الموضوع فجأة وسألها: وما حكاية البرنامج؟

وضعت خولة الصَّنوبر المحمَّص جانبًا، وراحت تغسل طقم الشاي على مهل: إستكانات شفافة مع نقطةٍ حمراء. كانت كنزها الأثير. حاولت أن تُماطل في كل شيء، لتعيشَ بقدر الإمكان دورَ الأمِّ التقليدية بين القدور، مع ابنها الذي يعضعضُ سيقان الكزبرة **«مثل جحشٍ مُجتر»**، وأملت أن يقدِّر الجهد الذي بذلته في تنسيقِ المطبخ وإن بدا مثل مختبرٍ للشعوذة، بتلك الأعشاب العطرية التي تستنبتها في الأصص، وعشرات حاويات البهارات، والسوائل الملوَّنة لعصير الشمندر، وعصير الكرفس والسبانخ، وماء الديتوكس المليء بشرائح الليمون. انحنت إلى المخازن السُّفلية تبحث عن حاوية، أحست بألمٍ أسفل ظهرها لكنها لم تجرؤ على الأنين. فالتعبير عن الألمِ، في سياقاتٍ بعينها، مرهون بوجود من يكترث.

أعاد ناصر سؤاله: «ما قلتي لي.. شنو موضوع البرنامج؟» وتساءلت: لماذا لم يسبق له أن رَدف أي كلامٍ يوجهه إليها بكلمة «يُمّه»، **«كما تقتضي**

الأصول». إنه يشير إليها أحيانًا، وأمام الآخرين، بالوالدة، ولعله يفضل أن يناديها باسمِها حافيًا: خولة، كما لو كانت زميلته في العمل.

تحدسُ خولة أنَّ نفوره قد تفاقم بعد ما أسماه «الرحلة» التي ما فتئ يكتب عنها على حساباته. امتلأت لغته بمصطلحات من قبيل *اكتشاف الذات، حب الذات، حب الطفل الداخلي، السماح بالرَّحيل*.. وتساءلت ما الذي يقوله عنها مع معالجته النفسية؟ شيءٌ على غرار: الأم «النرجسية» التي «لا تعرف الحُب»، والتي «تخلَّت عنه في أصعب سنوات حياته» والتي «لا تقبله كما هو»، وكليشيهات أخرى شديدة الرَّواج.

التقطت نَفسًا عميقًا، زفرت.

- مو أحسن ننطر اخوانك؟

أخرج سيجارته الإلكترونية من جيبه، استلَّ نفسًا ونثَّ بخارًا برائحة الخوخ في المطبخ.

- وينهم؟

- بالطريق..

ثمَّ سألتهُ إن كان، ما يزال، يكره الباذنجان. نخرَ بعصبية: لماذا تصرِّين على التصرُّف كأم، كأنَّ هذا سيغيِّر الأمور؟ كادَ يسأل، كانت متأكدة، لكنه لم يسأل، بل صبَّ جُلَّ سخطهِ على يوسف؛ ما حجّته

في هذا التأخير، وهو يقطنُ في الدَّور العلوي على مبعدة ثلاثين ثانية؟ قال إنه لا يفهم لماذا لا يكترث أحدٌ للمواعيد في **«هذه البلاد»**، ثم أردفَ بأنَّ الناس في **«هذه البلاد.. لا يحترمون أمرين مهمَّين: المواعيد والحدود»**، وأنها هي التي سمحت له باستغلالها على هذا النَّحو، بكل تلك الأماسي التي يخرج فيها مع زوجته إلى المطاعم والسينمات والمجمعات، ورحلاتهما المتواصلة إلى الرياض والدوحة ودبي، تاركين لها التوءمين. وأضاف، **«كما لو كان شديد العبقرية»**، أنَّها لو كانت تفكِّرُ على نحوٍ صحيح، لصنعت لنفسها ثروة من أخيه وحده، نظير السَّاعات التي تقضيها كجليسةِ أطفال.

حملقت خولة إلى وجهه وقد تهدَّل فمُها قليلًا. وفكَّرت في أنه يبدو أكثر وحدة منها، تلعثمت بأنها لا تمانع مجالسة الصغيرين، وهو لن يفكر بهذه الطريقة لو كان الابن الذي تزوَّج وأنجَب. آملة أن يخبرها أنَّ ثمة فتاة تعجبه، لكنه عاد يسأل:

- حمَد وين؟

هزَّت كتفيها، قال إنه سيتأخر. وهنا تمتمَ ناصر: Typical، مفخِّمًا اللام ومخففًا الباء كما ينبغي. لو عرَّبت خولة المعنى لبدا أجنبيًا في كل الأحوال، «كمْ هو نموذجي!»، وتساءلت إن كانت النمذجة اختراعًا غربيًا، وفي محاولة لالتماس عذرٍ لأصغر أولادها قالت إنَّ لديه مباراة «بادل»، حريصة أن

تنطق الـ p الناعمة مثل باءٍ عربية ثقيلة، ورأت تأثير ذلك في وجهه، وأحسَّت بشيء من الرِّضا، لمجرد رؤية انزعاجه.

ربما يحسنُ بنا، قبل أن يصل الابنان الباقيان، هذا إذا وصلا، أن نعودَ إلى الوراء قليلًا، لنفهم طبيعة الخصومةِ التي تُضمرها خولة لأمريكا، وهي خصومةٌ شخصيَّةٌ صرف، وليست كما يظنُّ البعض: احتجاج أستاذة الفلكلور على موجةِ التغريب.

الأرجح أنَّ الحكاية بدأت في فبراير ١٩٩١، عندما خرجت مع قتيبة إلى الشوارع لتقديم البسكويت المنزلي والقهوة العربية إلى عناصر قوَّات التحالف، ووقعت في غرام جنود الجيش الأمريكي، خاصة الشقر ذوي الأعين الملونة، الذين بدوا خارقين وفارعين ونبلاء على نحوٍ غير مفهوم، وقد تكبدوا مشقَّة المجيء من قارَّة بعيدةٍ جدًّا، لإنقاذهم.

جابا الشوارع المحرَّرة في ثالث أيام التحرير، ليكتشفا أبعاد الخراب، وبقايا الحرائق، والشوارع المجرَّفة بالدباباتِ، والخراطيش الملقاة على الأرض، وثقوب الرَّصاص في الجدران. كانت الشمس قد اختفت خلف ضبابٍ أسود كثيف، فصار النهار ليلًا والليل أيضًا ليلًا، وغطى السخام كل شيء. خرجا بالهوندا البيضاء، حاملين سلال الخوص المليئة بالبسكويت ودلال القهوة المهيَّلة، وقد انتظرت خولة في السيَّارة في كل مرة ترجَّل فيها قتيبة حاملًا السَّلة بين يديه ليقدمها إلى

الجنود، وبدا زوجها لأوَّل مرة، قصيرًا وقليلًا، بالمقارنة مع العماليق البيض الذين لوَّحوا بأيديهم وصنعوا علامة النصر وقالوا: Free Kuwait.

منذ تحرير الكويت ولسنوات طويلة، أحبت خولة أمريكا، حتى خوَّلتها مهمة إعادة صياغة عالمها، ليس فيما يتعلق بالجينز والهمبورغر وهوليوود، ليس تمامًا، بل عميقًا إلى أنغام الجاز ولوحات بولوك وليختنشتاين وروايات همنغواي وشتاينبك وأغنيات سيناترا وقصائد ديكنسون. راضية بـ «نهاية التاريخ»، وسعيدة بعالم القطب الواحد؛ عاشت خولة حلمها الأمريكي الخاصَّ دون أن تضطر إلى زيارة أمريكا مرَّة واحدة.

أنجبت ناصر بعد سنة من تحرير الكويت، حين امتلأت الشاشات والإذاعات وعناوين الجرائد ومتونُها **«بعبادة الأمريكي الأبيض»**، بعد احتلالٍ عربي، وخياناتٍ عربية، وسرديات غارقة في **«كره الذات»**، وبعد ثلاث سنوات، عندما كبر بكرها بما يكفي لدخول الحضانة، قرَّرت أنه يستحق أفضل تعليمٍ ممكن، في أحسن مدرسةٍ ممكنة.

وهكذا ذهبت إلى المدرسة الأمريكية الغالية، ولم يخطر ببالها أنها ستتغير جذريًا في غضون سنواتٍ قليلة، وأنها ستخسر ولدها.

تتساءل إن كانت رندة قد حضَّرت سؤالًا عن تلك

الحقبة، لأنَّ لديها ما تقوله في هذا الصَّدد: «**في تلك الأيام، آمنَّا كلنا بالرَّجل الأبيض، آمنا بأمريكا وسلَّمناها أطفالنا: خذوهم واجعلوهم بيضًا بقدر الإمكان! بقدرِ الإمكان!**»؛ هذا ما كانته خولة وقتها، أمَّا طموحة بقراطيس جديدة، ترتشفُ الزلال السُّكريَّ الذي تقطُره أمريكا في فمِها، وتتخيّل أبناءً فارقين: يقرءون الصخب والعنف لفوكنر وأوراق العشب لوايتمان، يعشقون إدغار ألان بو، ويعزفون الجيتار ويحفظون أغنيات بوب ديلان، ويتحدثون عن الديمقراطية وحقوق الإنسان وقضايا البيئة، لكن أيًا من ذلك لم يتحقق، لقد خيبت أمريكا أملها، وأعطتها في المقابل: «**كثير من البلادة، والإحساس الزَّائفِ بالتفوُّق، والغباءِ المطبقِ أمام التاريخ**».

لم يخطر لها في تلك الأيام، أنَّها لن تستعيد طفلها من أمريكا قط، وينقبض قلبها كلما تذكَّرت قتيبة، وكيف تحفَّظ على قرارها: «**كلنا درسنا في مدارس الحكومة، وما فينا إلا العافية**»، لكنَّها أصرَّت على التعليم الخاص، الأمريكي تحديدًا، لأنَّه «**نظامٌ يخلق الاستقلالية والتفكير النقدي**»، ولا يقوم على التلقين، ولأنَّ مكتباتهم أفضل، وفصولهم لا تعاني أعطال التكييف وحماماتهم ليست قذرة وبلا أقفال، ولأنهم لا يعاملون التلاميذ كالخِراف، ولأنَّ فعالياتهم لا تنتهي: «يوم البيجاما، أسبوع القراءة، يوم التخضير، يوم القميص المعكوس..».

ثم سألها سؤالًا ما زالت أصداؤه تتردّد في أحشائها:

- واللغة العربية؟

انتفضَ شيءٌ بداخلها.

أحسَّت بهشاشة مفاجئة، أمام زوجها أستاذ الأدب العربي، بدفاتره الجلدية المليئة بالشعر، وحلمه الأزليّ بكتابة الشعر، ومكتبته المكوَّنة من الشعر ومن أجله، والذي ضمّخ جلدها بأبيات كعب بن زهير والمنخل اليشكري وعمر بن أبي ربيعة، الذي بفضله -فقط- صارت محصَّنة ضد التصابي، لأنها صدقت أنها «هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة»، وأنها «الكاعب الحسناء التي ترفل في الدِّمقس وفي الحرير»، وقد هفَّ قلبها في كل مرة كان يتمتمُ «قف بالديار وصِح إلى بيداها» مقلبًا المفاتيح بين أصابعه، واقفًا أمام الباب، وهي تعرفُ الآن أنها اعتبرت الشعر، طوال حياتها، ضربًا من المسلَّمات، وأن أكثر الرجال لا يجيدون المغازلة ولا يعرفون الحب لأنهم لا يقرءون الشعر، وعندما سمَّى البيت «دار خولة» خالت الأمر طبيعيًّا، بل وعاديًّا، وتتذكر ما كان يردِّده على مسمعِ ناصر ويوسف بعد عودتهم من رحلةٍ صيف طويلة: «قفا في دار خولة فاسألاها»، وتحسُّ بقلبها يتصدَّع وهي تتذكر الشطر الثاني:

- «تقادَم عهدُها.. وهجرتْماها».

لكنها ردَّت يومها، أنَّ تعلُّم اللغة يبدأ في البيت، فهي لم تكن تعلمُ، بأمومتها الغضَّة، أنَّ **«الحداثة ستدمِّر البيوت»**، وأنَّها ستخلِف كل وعودها لقتيبة بشأن تعويض ناصر عن ضعفه في لغته، لأنَّ الأمر ببساطة غير ممكن مع عودته من المدرسة في الثالثة، وانشغاله منذ الخامسة وحتى الثامنة في حلِّ الواجبات والتحضير للمشاريع والاستعداد للاختبارات. بدا ضربًا من ضروب التعذيب، أن تضيف إلى جدوله المزدحم برنامجًا آخر، وكانت تؤجِّل الموضوع دائمًا إلى إجازة الصَّيف، لكنَّهم يسافرون في الصَّيف، فصار الولد يكلِّم والديهِ بالإنجليزية، وكانت تطلب منه أحيانًا أن يعيد ما قاله بالعربية، لكنَّها في أحيانٍ أخرى، ولأسباب تتعلق بالتعبِ وقصر البال، تحدثت معه بالإنجليزية اختصارًا للوقت.

«لكن المشكلة ليست في اللغة». تريدُ خولة أن تقول في البرنامج: **«بل فيما يقبعُ في جوفها»**. ما زالت تجدُ صعوبة في شرحِ الأمر، لكنها ستضيفُ بأنها لم تكن تدركُ، بعدُ، أن **«اللغة هي إسفنجة»**، ولا قتيبة شرحَ لها الأمر على هذا النَّحو.

أحسَّ قتيبة بالخيانةِ، ولا تذكر خولة شيئًا آخر عكَّر زيجتهما إلا شعوره بالغبنِ من ولدهِ، ولومه المتواصل إياها على تراخيها، وصحيحٌ أنه ناكفها

بشأن «الفتى العربيّ.. غريب الوجهِ واللسانِ»، لكنه لم يساعدها أيضًا، لم يخطر له أن يفعل. مثل أكثر الرّجال، كان يعتقدُ أنّ التربية هي شأن النساء.

ألهذا السبب أرادت أن تكفّر عن ذنبها بعد وفاتِه؟

ربما، لو أنّ ناصر لم يقفل باب غرفته طوال الوقت، ولم يُمضِ الليل بطوله في ألعاب الفيديو، ولم يصفق الأبواب متوتّرًا كلما طلبت منه -«**على نحوٍ غير معقول!**»- أن يضع الغسيل في السلّة، أو يذاكر للاختبار، وألا يردد تلك الكلمات النابية، وألا يخرج من غرفته نصف عارٍ، أو أن يقلّمَ أظافره التي تجمَّعَ تحتها السخام، أو أن يقصّ شعره الأشعث، أو أن يرافقها في زيارة أقارب العائلة، أو أن يرتدي الدشداشة في العيد، أو يرافق والده إلى صلاة الجمعة، أو سألته، لا قدّر الله، إن كان قد صلّى فروضه.. لَمَا حدث ما حدث.

بعد مضيّ سبعة أشهر على وفاة قتيبة، ذهبت خولة لحضور موكب اليوم العالمي في المدرسة، ولأنها في الأصل أستاذة الأدب الشعبي، قرّرت أن تحضر الفعالية مع جميع الصُّفوف، منذ الحضانة وحتى الثانوي. «**كنتُ حزينة. كنت أفتقد زوجي، وأردتُ التفرج على الأطفالِ الذين يرقصون بتلك الأزياء**». تتخيل خولة ما ستقوله في البرنامج.

جلست تتفرّج على المواكِب والرّقصات، ابتسمت

أحيانًا وصفّقت أحيانًا، ودمعت عيناها عندما خرج طلبة الصفّ الأول الابتدائي مرتدين الزي العسكريّ للفدائيين الفلسطينيين، حاملين أغصان زيتون مصنوعة من ورق الكريشة، وغنوا «موطني»، وحيّت المعلمة الفلسطينية-الأمريكية مصفّقة بحرارة. تعاقبت المواكب: المكسيك، المغرب، فرنسا، الهند (كان يوسف يرتدي زيَّ مهراجا ويرقص مع أفعى بلاستيكية)، إيطاليا، كولومبيا، لبنان. لا موكب للعراق حتى في ٢٠٠٧، ولا للكويت -فهذا الموكب مدّخر للعيد الوطني- والعجيب أنه ما من موكبٍ لأمريكا، وهنا رأت الأمر كما هو: **«أمريكا ليست بلدًا آخر، أمريكا هي البلد، بألف لام التعريف، والآخرون هم الآخرون».**

عندما جاء موكِب صفِّ ناصر، وكانوا قد اختاروا تمثيل السويد حتى يتسنى لهم ارتداء خوذاتٍ قرنيَّة مثل «الفايكنغ»، وأمسك كل منهم بيدِ آخر وراحوا يطوحون بأقدامهم يَمنة ويَسرة على أنغام «النيكيلهاربا»، اغرورقت عيناها لرؤية ولدها يبتسم، ربما للمرة الأولى، منذ وفاةِ والده. ودون أن تشعر، انتصبت واقفة وأطلقت زغرودة صدّاحة، ما جعل الجميع يلتفت، وأحسَّت بالغرابةِ عندما تظاهرَ ناصر بأنَّ تلك الزّغرودة الطالعة من حشا أرملةٍ طازجة، لا تخصُّه. لقد أحرجته أمام أصدقائه، وفي وسعها أن ترى ذلك، لأن وجهه قد احمرَّ بإفراط،

ولأنَّ ابتسامته قد اختفت.

اضطرت خولة إلى الاختفاء حتى نهاية الفعالية، غادرت قاعة المسرح مثل دخيلة، انتظرته في السَّيارة قرابة الساعة، واعتذرت إليه طوال الطريق.

تعقّدت الأمور مع اقترابِ نهايةِ الفصلِ الدراسي؛ رسَب ناصر في جميع المواد الأساسية باستثناء الإنجليزية، واتصلت الاختصاصية الاجتماعية بخولة تخبرها بأنَّ أمامه فرصة أخيرة، مع اختبارات نهاية الفصل، لكي يحسّن درجاته، وإلا فسيخسر مقعده للسَّنة القادمة، وأجابت خولة بأنَّ التَّدهور في مستواه طبيعي لأنه فقد والده للتوّ، وهنا قال الصَّوت الجليديّ على الهاتف إنَّهم «آسفون» وأنهم «يتفهَّمون طبيعة الموقف» لكن «اللَّوائح هي اللَّوائح»، وردّت خولة بأنها سترفع شكوى إدارية بشأن عدم مراعاةِ المدرسة لظرف ولدها، فنصحتها الاختصاصية بأن لا تفعَل، لأنَّ هناك قوائم انتظار طويلة للتسجيل، ولا يمكن للإدارة أن تستغرق في معالجةِ **«حالاتٍ فردية»**، وأنَّ الطريقة الوحيدة لضمان بقائه هي في تحسين درجاته وليس في خوض معارك مع الإدارة التي لا تتمتّع «بطول بالها شخصيًا».

ابتسمت خولة ببلاهة، ربما لأنَّها أُتخمت لسنواتٍ وسنوات بالتنظير التربويّ بأنَّ كل ما هو مطلوب

من المربّين هو الحُب والقبول غير المشروط. لقد حُشِيَت بأفكارٍ **«بيضاء»** من هذا القبيل حتى أحسَّت أنها معلولة، ومُطالبة بما لا تقدرُ عليه، أن تقعي مثل كلبةٍ على الرَّصيف وتتلقى الأوامر: **«اجلسي يا خولة! التقطي الكرة يا خولة! فتاة شاطرة يا خولة!»**، لكنها في ذلك اليوم ابتسمت من كل قلبها، كما لو أنها قد تحرّرت من فشلها كأم، أو من الأمومة كلها، كما اتضح لاحقًا.

قرّرت يومها أنَّ الوقت قد حان لتصويب بعض الأخطاء، وقالت لصاحبة الصوت الميكانيكيّ: «شكرًا لكِ على الاتصال، لقد قرّرتُ نقل ولديَّ إلى مدرسة أخرى»، وهنا تصرَّفت الاختصاصية، كما لو أنها قد سمعت تجديفًا، ليس بحق المدرسة -**«لا سمح الله»**- بل بحق الطفلين المنكوبين بأمٍّ مجنونة.

لن تنسى خولة ذلك اليوم، إنَّه اليوم الذي خسرت فيه ولدَها.

قد لا تتذكّر ما حدث بالضبط، لكنها تذكر أمواج الصُراخ المتعالية، تحجُّر عينيه، نتوء العروق في صدغيه، الجؤار المشروخ في صوته، اتهامها بالتدَّخل فيما لا يعنيها، وصمَها بالجهل والأنانية، وأنَّها لا تقبله كما هو.. وهنا فكَّرت في أنَّ المشهد يبدو مألوفًا على نحوٍ عجيب؛ كانت حياتها **«محض محاكاةٍ رديئة لأفلامِ هوليوودية رديئة»**.

لم تتخيل خولة أنَّها محتشدة بالكلام إلى هذه الدرجة، وقالت إنها عندما اختارت مدرسة أمريكية كانت تعوِّل على تنشئة أبناء فارقين، وليس **«وقحين وكسالى ومتذاكين»**، وهنا أعاد كلامه: إنها تريد أن يصير نسخة منها، وهي لا تستطيع فهمه، وتريد اقتلاعه من المكان الوحيد الذي يحبه، كأنَّ فقده لأبيه لم يكن كافيًا.

You'll thank me later.

قالت.

لكنَّ الفتى لم يشكرها قط، بل لعنها سنوات، وصاح يومها أنَّه لن يسمح لها بإفساد حياته. تتذكر خولة أنها رفعت حاجبًا وسألته: ما اسم الدول الثلاث المجاورة للكويت؟ ظهرت تجعيدات أعلى أنفه، انفرج منخراه، مدَّ بوزه وتقوست شفتاه إلى أسفل، كمن تنشّق رائحة عفونة: ما علاقة هذا بموضوعنا؟ إذا أجبت على سؤالي فسأسمح لك بالاستمرار في المدرسة. تضرَّج وجهه وقال: السعودية. ثمَّ سكت. استنطقته خولة: وبعد؟ لكنه لم يعرف. لا العراق ولا إيران، لا يعرف كم دولة عربية توجد على الخريطة، لا يجيد القسمة والضرب، لا يعرف المشترك الحسابي، لا يحفظ بيت شعر واحدًا، ولا أن يعرب فعلًا مضارعًا في جملة فعليةٍ بسيطة.

قالت وقتها إنها لا تفهم لماذا تنفق كل مواردها لرؤية أبنائها **«بلا جذور ولا سيقان»**، ولا حتى معرفة أساسية لفهم الأشياء، وأنَّ ما يعرفه ولدها عن رقصة الفايكنغ **«يفوق بمراحل ما يعرفهُ عن أجداده البحّارة»**. وهنا تطاير الرذاذ من فمِه، وصاح إذن أنت تعترفين بأنَّ الأمر يتعلق بالمال!

وهنا قالت إنها تفضِّل أن تنفق مواردها **«المحدودة»** على عملية إعادة تأهيله، معرفيًا واجتماعيًا وأخلاقيًا.

رفعت ثلاث أصابع أمام وجهه.

ثم حدث ما لم تتخيَّل حدوثه.

فتحَ باب المنزل، وخبَّ إلى الشارع، هاربًا من أمّه.

لم يعد الولد إلى البيت منذ ذلك اليوم. اختبأ في حضن جدَّته، الثكلى بفقدِ ولدها، والتي توسَّطت بين الفتى ووالدته: «خليه عندي كم يوم، لين تهدا الأمور»، لكن الأمور لم تهدأ، والفتى لم يعد.

لقد حصل ناصر على الحياة التي يتمناها أخيرًا: شقة خاصة في الدَّور الثاني، ودَلال الجدَّات غير المحدود، ودرجة صِفرية من التدخل في شؤونه. **«فردانية أمريكية مطلقة»**.

٥

بقدر ما يعرفُ يوسف أنه شخصٌ بسيط، يعرفُ أيضًا أنّ العَلاقات معقدَة، وأنّ على الولد أحيانًا أن يتولى تربية والديه، وأنّ العالَم مقلوبٌ على عقِبيه.

أحسَّ بكآبةٍ تثقل قلبه وهو يتفرّج على مباراةٍ لفريقه المفضَّل، ورغم أنه كان سخيًّا في توزيع السِّباب والبصق على الشاشة، ذاهلًا عن التوءمين اللذين راحا يتسلَّقان جذعه صعودًا ونزولًا، وعن اعتراضات زوجه على ألفاظه الخادشة وأسلوبه غير التربويّ، أصدر غمغمةً توحي بأنه يصغي، لكنَّه بقي مغيَّبًا عنِ كل شيء، وأخذته أفكاره غصبًا إلى مكالمة والدته الأخيرة، عندما أخبرته عن البرنامج، وفكّر في أنه متعبٌ من اضطراره المستمرّ إلى أن يكون أبًا لأمه، ومن حقيقة أنها ما زالت تتصرَّف كطفلة، وأنها **«لا تعرف النّاس»** وتفترض إلى الأبد حسن الطويَّة وسلامة النيَّات، وتعاني قابلية مَرضيَّة لتكرار أخطائها، وأنها، مهما فعل من أجلها، ستبقى دائمًا في انتظار ناصِر.

منذ سبع سنواتٍ، أطلق الابن الثاني وصاية شفَّافة على أمّه التي لا يثق بقراراتها. وهو لم يتساءل قط عن مدى صحّة آراء أمّه **«الغريبة والمتطرِّفة»**، لأنّ الأمر لا يهمه كليًّا، ليس في أهمية حركة يديها العُصابية وتذبذب عينيها أمام الكاميرا.

الملابس التي ترتديها ساعدت في تحويلها إلى «كاريكاتور»، أو إلى **«ديناصور نسيَ أن ينقرض»**، وكانت تقارَن دائمًا بنساءٍ لم يعرفهن ولا يريد أن يعرفهن، مثل مريم نور ونوال السعداوي، لكنه يعرفُ ما يعنيه ذلك في «الدّواوين».

كان الوضع غير محتمل، خاصّة عندما بلغ الأمر حدَّ تكفيرِها من قِبَل الإسلاميين، واتهامها بالـ «السلفية الفكرية» من قِبَل الليبراليين، وكان يمكن للأمور أن تتوقف عند هذا الحدّ، لولا أن أمه لم تمتلك يومًا حاسة استشعار الخطر، ولم تنجح قط في تنظيم مشاعرها التي اختلط فيها الخاص بالعام، والعائلي بالسياسي، والحابل بالنابل، فكان عليها أيضًا أن تختتم اللقاء -الذي شعرَ كل من يتابعه بأنّه يتعرّض لتقريع عجوز شبه مخبولة- بالقول بأنه خليجٌ «فارسي» تاريخيًا، وأنَّ الجماهير «منحطة» فكريًا ولا تستطيع إنقاذ نفسها، ويجب أن «تساق إلى مصلحتها رغمًا عنها»، حتى سألها المذيع مستنفرًا:

- شنو بهايم؟

- إي بهايم.

لقد ارتكبت خولة جميع الموبقات في لقائها الأخير، والحق أنها لم تترك أحدًا في حاله، لا الحكومة، ولا الإسلاميين، ولا الليبراليين. لم يرغب

أحد في الدفاع عن «مثقفة» متعالية، أحدثت جرحًا نرجسيًا في ذات الجماهير التي لا تقبل الظهور إلا في صورتين: إما ثوّار، وإما ضحايا.

كان من الطبيعي أن يثوروا.

أُختُزل حوار الساعة إلى مقاطع لا تتجاوز الدَّقيقة الواحدة، وتمَّ تدويرها آلاف المرَّات على منصَّات التواصل الاجتماعي، سرعان ما تحوَّلت إلى «ميمات» على تويتر وإنستغرام، وملصقات على «الواتسآب»، وكانت ردود أفعالِ الناس تتراوحُ بين الشتم وكتابة المنشورات التي تدين «انحطاط النُّخَب» وإدانات للطبقة المثقفة التي «تتخلل بلسانها تخلُّل الباقرة بلسانها» وتنتهي بالنكتة.. وكانت النكتة هي الأسوأ. خاصَّة عندما وُضِعت صورتها إلى جانبِ معزاة عوراء وطلب من المتابعين البحث عن الفروقات السَّبع. تصدَّر وسم #الدكتورة_خولة بقية الوسوم السياسية والفضائحية والحقوقية، إلى جانب وسم #محشوم_الشعب_يا_دكتورة_خولة، ووسم #الخليج_عربي_مو_فارسي الذي هيَّج المهاجمين من دول الجوار، وامتلأت كلها بمقاطع فيديو لعجولٍ ونعاجٍ وماعزٍ وخراف وأكباش، «**بهائم ومزيد من البهائم**».

لهذا السَّبب لا يفهم يوسف، كيف يمكن لأمه أن تفكر في معاودة الكَرَّة، وأن تجرجرهُ وأخويه إلى

جلاجلِ الفضيحة، ولماذا لا يكفيها أن تكون أمًّا، مجرّد أم، «**لماذا لا يكفيها ذلك؟!**».

لم يفهم يوسف ما الذي ينقص خولة، وأحسّ بأنّ إسعادها هو مسئوليته وحده، لا سيما مع غيابِ وتغابي أخويه. لقد بدا طوال حياتهِ مثل الشخص البالغ الوحيد في عائلة من القصّر. لقد فعل كل شيءٍ لملء عالمِها الفارغ، «**يُمه فتحي الباب**» بين يومٍ وآخر: *كيلو* زبيدي. زنبق. دهن عود. زيت *زيتون*. ربع *كيلو* جوزة *الطيب*، وكل ما يمكن أن يبهج خاطِرها. لكنها مع ذلك لم تكن سعيدة، لأنه ببساطة لم يكن ناصر، ورغم أنه يعرف أنَّ تعاستها لم تكن غلطته، فإن عليه أن يحاول أكثر.

كان العشاء جاهزًا عندما وصلَ يوسف، وكانت نكهة البطاطا الحلوة والدُولمة تتضوّع في الهواء، ما جعله يردّد «يَه! يَه! يَه!». شمَّر كمَّيْ دشداشتهِ، وتلألأت عيناه: «شهالزّين يمه!». دنا من خولة وقبّل رأسها وقد حوّط جذعها بساعدِه، فأحسَّت بابتسامتها تطفر من وجهها، وبدا الأمر مثل تعويض.

عندما هجَرها ناصِر، قبل خمس عشرة سنة، كان يوسف هو الذي بقي. لم يتكيَّف مع مدرسته الحكومية الجديدة فحسب، بل منحها على مرِّ السنين كثيرًا من كلمة «يُمَّه» وأحيانًا «يمه حبيبتي» وكثيرًا من «إنتي أحلى أم في الدنيا»، بل ومئات القبلاتِ على جبينها.

لعب يوسف دور رجل البيت بعد وفاةِ أبيه. في الثامنة كان يذهب إلى البقالة لشراء الخبز. في الخامسة عشرة كان يتصل بالسَّمكري والكهربائي. في الثامنة عشرة أصبح يتكفل بأعطال السيارة وصيانتها: تبديل الزيت والفلاتر والإطارات المثقوبة. كان مثاليًا تقريبًا، لكنه بقدر ما حافظ على علاقة طيبة مع خولة الأم، أبقى على مسافة احترازية مع خولة الأستاذة، بصفتها شخصًا لا يخصه، أو أسوأ، بصفتها عاره.

نهض ناصر من مكانه ليضرب بكفّه بكفّ أخيه..

- هاه، توّ الناس!

تصافحا.

- مباراة حبيبي، مع أرسِنال.

سأله ناصر:

- منو مع أرسِنال؟

- ليفربول، منو يعني؟

- منو فاز؟

- إحنا.

ثم التفت إلى أمّه.

- يمه والله أحبّچ أكثر من محمد صلاح.

ضحكت خولة وغمغمت: «لا واضح»، ولوهلة أحسّت بأنها قد استعادت زمام أمومتها وامتلكت شرعية أن تطلب من الولدين مساعدتها في نقلِ الأطباق إلى غرفة الطعام، ريثما تبدّل ثيابها وتتعطّر. فكّرت لوهلةٍ أن تطلي شفتيها بالأحمر لكنها تراجعت، إذ يجب أن تبدو الصّورة مثل شيء «**غير مخطّط له بالمرة**».

جلست إلى الطاولة، واتصلت بحمد مرّتين دون أن يرد، ولم يكن الأمر غريبًا عليه، فقرّرت أن يبدءوا من دونه. ملأت صحنيّ الاثنين من كلّ شيء: كثير

من الفتَّة ليوسف، كثير من الدُولمة ولحم الضَّأن لناصر، شيء من «البلاليط» للاثنين، بطاطا حُلوة للاستئناس. جلست تحدِّق إلى الولدين. **«ما زالا ولدين»**، وقد انهمكا في حوارٍ صبياني عن السياسة والفاشِنِستات وآخر الوجهات السياحية، متعجبة من بقائهما أخوين رغم انعدام المشتركات، وفكَّرت في أن مقابل كل جرحٍ من ناصر، كان يوسف سخيًّا في منح العزاءات، ربما لمجرد أنه يرتدي الدشداشة ويقول «يه! يه! يه!». كما أنَّ أخبار محمد صلاح تبدو لها أجدر بالاهتمام من اليخوت الافتراضية وحبِّ الذات.

ثم راح يوسف، بين قضمةٍ وقضمة، يتحدث عن طفليه: «تخيّلي يُمّه، ليلحين مو راضين ينامون بغرفتهم. لازم ينامون بيني وبين أمهم. نِشبة يمه!»، تضحك خولة، «يا زين النَّشبة بس»، لكن ناصر بدأ يُدلي بدلوه، رغم انعدام تجربته في هذا المضمار، مؤكدًا على أهمية الحسمِ في هذه المسائل، وتربية الأبناء على أن يشبُّوا مُستقلين، وأردف بأن لا داعي إلى القلق في أيامنا، توجد كاميرات مراقبة للأطفال بتكلفة زهيدة.

وربما لأن الدُّولمة كانت طريَّة وشبه ذائبة ومليئة بالعصارة الحامضة، أحسَّت خولة بتحسن مطّرد في مزاجها، فعلّقت: «إنت ظليت تنام يمّي ليما صار عمرك خمس سنين». كان في صوتها شيءٌ

من التشفّي، انتسابٌ قسري إلى حياةٍ أقصيت عنها بالكامل. دمدمَ يوسف: «يقول كاميرات ولدج! وين قاعدين؟». وكانت تلك طريقته الموجزة في التماهي مع دهشتها؛ إذا كان مسموحًا للأمومة أن تتحول إلى جهاز استخباراتي، أين الضَّير في أن تتلصّص على حساباتهم الشخصية كما تفعل الحكومات؟

نظر إليها ناصر وسأل وكأنه لا يصدق: «صِج عاد؟»، أنا نمت في سريرك حتى الخامسة؟ فقالت نعم. لم توافق على المبيت في غرفتك إلا بعد الروضة، حتى أنَّ قتيبة -الله يرحمه- ملأ سقف غرفتك بملصقات لكواكب ونجوم تضيء في الظلام، وأعدنا تصميم كل شيء حسب ذوقك، ولم ينفع شيء. ثم وعدناك بهدية كبيرة إذا بتَّ سبع ليالٍ متتالياتٍ في سريرك. علّق يوسف: «هذا اللي يسمونه streaking». وتابعت خولة وقد لمعت عيناها: أخذناك إلى أكبر محلٍّ للألعاب، لكي يسيل ريقك أمام كل الألعاب التي تشتهيها. ضحكت. ثم نظرت إلى عيني ناصر وأردفت: كان الأمر يشبه فطمك ثانية. وتساءلت إن كانت قد نجحت في خلخلةِ تصوّرٍ ما داخل رأسه، عن مدى سوئها كأم، لكن وجهه تحجّر وقال إنّه ليس مثالًا جيدًا لما سيؤول إليه طفل ينام ملتصقًا بأمّه. وسألته عمّا يقصده، فأشار إلى صدره وقال: Look at me.

وعاد يلتصق **«مثل طحلبٍ لزج»** بمقعد الضحية. وعوضًا عن أن تسمح له بالتمادي قالت ما لا تصدقه: «ما فيك إلا العافية». رغم أنها تؤمن بأنه عليلٌ في قلبِه، وملتاث في عقله.

أحسّت خولة بمتعة صافية، وهي ترى الكلام يتدفق دونما جهد. كان يوسف قد بدأ حديثه عن التقاعد، الذي هو أقصى أمانيه في هذه الدنيا، رغم أنه في أواخر العشرين، لأن المدير «أثول»، ورئيس القسم «جحش»، ولأنَّ للقسم رائحة الفلافل. وأدهشها أن ناصر لم يسأل أخاه لماذا لا يغير وظيفته، أو **«لماذا يقبل أن ينمسخ إلى كرسيٍّ دوّار أو دبّاسة»**، أو **«لماذا يبدو مرتاحًا في عيش حياةٍ غير منتجة»**. وكل تلك المحاكمات -التي تظنها خولة مشروعة- لكنها لم تُقل، كأن ناصر أيضًا سعَد بالهدنة العابرة لعائلة عادية تحاول الاستمتاع بعشاءٍ عادي.

لدقيقة، وقبل أن ينقلب العشاء إلى جلسة محكمة، سرحت خولة تتخيّل الولدين على شاشة البرنامج. ثم تذكرت أمرًا ضايقها: لقد رأت نفسها في المنام ليلة أمس تنزعُ عنها قرطاها..

عندما أُتخمَ يوسف، جالَ بعينيه متفحّصًا المكان وكأنّه يعيد اكتشافه، وفكّر في أن غرفة الطعام **«مبالغٌ بها»** قليلًا، فقد أصرّت خولة أن تتسع الطاولة لاثني عشر مقعدًا، رغم أنّهم في الغالب لا يزيدون على ثلاثة، وفي رمضان، عندما يأتي مع زوجهِ والتوءمين، سيصلُ عددهم إلى ستة، وعلى فرض -وهذا افتراض بعيد- وجود ناصر، سيكونون سبعة، لكنَّ أمه جهَّزت مكانًا لزوجةِ ناصر المستقبلية -رغم أنَّ أخاه لن يتزوج **«ولا ينبغي له»**- ومكانًا لزوجةِ حمد التي، إذا سار كل شيءٍ على ما يرام، فستنضم إلى هذه العائلة بعد ست أو سبع سنوات.

على طول الجدارِ كانت الدواليب تمتلئ بأوانٍ صينية وشمعدانات فضية وأطقم شاي مغربية، وكانت الثريات الكريستالية المتدلية فوق الطاولة تضفي إحساسًا مزعجًا بالفخامة. وبعد وفاةِ قتيبة، لم يجرؤ أحدٌ على الجلوس على مقعده عند رأس الطاولة، وكان هذا الفراغ سببًا لاستذكاره والإشارة إلى مقعدهِ وسط الكلام، **«والله العظيم حتى أبوي مرة قال..»** كما لو أنه ما زال هنا، يهزُّ رأسه مؤيدًا.

يتذكّر يوسف أقلّ القليل عن أبيه، ويعرفُ أنه كان أستاذًا في الأدب العربي، ويفهم لماذا أحبَّ أمه

ولماذا أحبّته، فقد **«كانا مخبولين تمامًا»**، وكانت الأزمة القلبية التي قتلت والده شعريةً ومتناسبة مع «حساسيته» التي يجدها يوسف منفّرة. ما عدا ذلك، كان كل شيءٍ يعرفه عن أبيه هو ما قالتهُ أمّه، ولم تكن مصدر ثقةٍ عنده وعليه فقد اضطرّ إلى التشكيك في كلّ شيء، ولم تعجبه صورة الأبِ المليء بالنّوادر، الذي يعلِّقُ على كل شيءٍ شعرًا، ولم يكن يتذكر من كل تلك الأبيات إلا شيئًا من قبيل «لخولة أطلال» و «يا دار خولة» و «قف بالديار»، وأنه كان يتواقح على الشعر الجاهلي والعذري بحذف اسم عبلة ولبنى وليلى وعزة من كل قصيدة لتحويلها إلى شيءٍ خاصٍّ بأمه. لكن يوسف غير مهتمٍّ بأبيه أستاذ الأدب العربي، بقدر ما هو غير مهتم بأمّه أستاذة الفلكلور. إنّه يريد معرفة تفاصيل أكثر حِسية: هل كان يستبدل اللّمبات المحترقة أولًا بأوّل؟ هل كان يرقع الإطارات المثقوبة، ويعاينُ ماكينة السيارة، وينصبُ الخيامَ في البرّ عندما يحلُّ الربيع، ويذبح الخراف في عيد الأضحى، ويعرف أي طُعمٍ يُستخدم لصيد الشَّعم والنويبي، ويحبُّ كرة القدم؟ كان يريد أن يعرف إن كان أبوه مثل بقية الآباء.

نظر إلى أمِّه، إلى الطَّراوة الطارئةِ على ملامحها، والطريقة التي يتقلقلُ بها كتفاها عندما تضحك، كانت تغطّي فمها براحتِها مثل صبيّة تخجل من

تقويم أسنانِها. امتلأ داخلهُ بحنانٍ دافئ، وعرف أنَّ مزاجها الطيّب كان بسبب ناصر، وشعر بأنَّ كل ما يفعله غير كافٍ، وتساءل إن كان موضوع البرنامج هو محض محاولة طفولية مؤسفة **«لإثارة الانتباه»**، وقد كره أن يذكر الأمر، لكنه لم يستطِع تأجيله أكثر..

- إلا شسالفة البرنامج، يمّه؟

سألها يوسف. اكتست نبرته ثقلًا مفاجئًا جعل قلبها يستوحش.

تنحنحت وهي تقلِّب الملعقة في الفتَّة، تزيحُ شرائح الخبز المحمَّص إلى طرفِ الصَّحن. وبحذرٍ بالغ، وقد أخذ قلبها في الوجيب، قالت إنَّها تلقت اتصالًا من فتاة لطيفة -«**ليست لطيفة حقًّا لكنها الأصول**»- اسمها رندة، تعدُّ لبرنامج اسمه «تفاصيل»، حواريٌّ جزئيًا، وثائقيٌّ جزئيًا، لمناقشة محطاتٍ من حياتها، وبعض آرائها..

قاطعها يوسف: «بس يمه!»، ازدرد ريقه، وخرج صوته خافتًا:

- نسيتي اللي صار آخر مرّة؟

لا لم تنسَ، كيف لها أن تنسى؟

ثمَّ أردف:

- احنا ما صدّقنا الناس نست..

نخرَ ناصر:

- منو اللي نسى؟

هازًّا رأسه ملوِّحًا بيُمناه، أضاف: قبل أيام في مجموعة على «الواتسآب»، وفي معمعةِ نقاشٍ عن

قرار الداخلية بمنع تجمُّع نسائي لممارسة اليوغا، قذف أحدهم ملصقًا كوميديًا لخولة، و«ضحك الجميع».

التفتت خولة إلى ناصر وسألته:

- وإنت ضحكت؟

تلعثم: «لا أكيدا» لكنه كان يكذب، فهو عندما يكذبُ يحكُّ أرنبةَ أنفه.

سأله يوسف:

- أي ستيكر فيهم؟

فالملصقات كثيرة، وولداها يغرفانها ملصقًا ملصقًا، وربما يتبادلانها فيما بينهما ويتضاحكان من باب التَّصالح مع الواقع، ولعل العلاقة بين الاثنين لم تكن لتتوطّد في السَّنوات الأخيرة لولاها؛ بصفتها **«عارهما المشترك».** أخرج ناصر هاتفه من جيبه وبحث في الحوارات، ثم أراهُ شقيقه الذي أطبق جفنيه زامًّا فمه، كمن تلقى بصقةً على الوجه.

قالت «عطني أشوف». أعاد ناصر هاتفه إلى جيبه وقال: «ما في داعي». «أقولك عطني أشوف». «لأ». تدخل يوسف: «أبو غوغاء». هكذا سمّى يوسف تلك الملصقات: «أبو مثقف عضوي». «أبو رِعاع»، والمفضل عند الجميع «الناس بهايم».

ثم نظر إليها يوسف وعلّق:

- يمه إنتي كلامك نصّه ما ينفهم! مثقف عضوي، إمبريالية ناعمة.. شهالكلام يمه؟

كركرَ ناصر هازًّا رأسه، فأضاف يوسف:

- عاد هذاك اليوم مزَّجت على كم مثقَّف على تويتر، من هذيل اللي نص كلامهم اقتباسات، والله العظيم ما تدري شيقولون.

ثم راح يردد الكلمات الجديدة التي التقطها:

«أبستمولوجي»

وابتسم.

«شوفينية»

وبحلق.

«نيتشه»

مغطيًا أنفه براحتيه كما لو كان يعطس.

قهقهَ ناصر «Bless you»، وبدا عليه أنه يتسلى أيَّما تسلية بالحوار، حتى أن يوسف زادَ في القول: «ناس غير ياخي، عندهم مرئيات وحيثيات، إنت عندك حيثيات؟».

قبض ناصر على شحمِ خاصرته:

- أنا هذي حيثيّاتي.

قاطعتهما خولة:

- أنا ما أتكلم چذي..

محاولةً النفاذ من تهمة لا تدري كيف تسمّيها، لأنه ميدانٌ يموج بالادعاء والكلمات الرّنانة والمراهَقة النقدية. البويطيقا والبيداغوجيا والأنطولوجيا، كلمات لم تضطر إلى استخدامها قط. لكنها تستخدم كلمة «تغريب» وكلمة «إمبريالية» وكلمة «حداثة»، لم تقتبس من نيتشه وشوبنهاور وهيغل، بل من فوكو وإدوارد سعيد والجابري وفرانز فانون وأركون، لا تحبُّ شعر بودلير ولا بول فاليري ولا أدونيس، بل عنترة والمعرّي وابن الفارض ومظفّر النواب وسلالة من العذريين، فإلى أيِّ حدٍّ ينبغي أن تنحدر إلى ذلك **«المشاع اللغوي»** لكي تُفهم؟ تذكَّرت لقاءها الأخير، وكل تلك المحاولات العبثية **«لكي تدقَّ النواقيس بين الصمّ»**. أحسّت يومها بأن المذيع بالكاد سمح لها أن تغادر مساحة البداهة وتبدأ في قول الأشياء المهمة، لكنها اليوم تنكصُ إلى مرحلة ما قبل البداهة، فكل شيءٍ تقوله يمكن أن يتحول إلى مسخرة.

- أكيد يمّه، أكيد.. محشومة، إنتي مو مثقفة، إنتي أحلى أم بالدّنيا.

قال يوسف، كأنه برّأها من سُبَّة.

أطرق قليلًا ثم سألها: «شلِچ بهالسالفة يمه؟»، وقدَّم تنظيرات مستفيضة عن تلك البرامج بصفتها

فِخاخًا، واستشهد بالحديث النبويّ: «لا يُلدغ المؤمنُ من جحرٍ مرَّتين». ولما رأى أمه تحدّق إلى بقايا الخبز واجمة، أردف: حتى لو سار كل شيء على ما يرام، وقلتِ كل شيء على نحوٍ صحيح، «ما فرقت يمه»، لأنها موصومة بما حدث، لأن الناس لن يفرِّطوا بنكتة جيدة، وخولة نكتة جيدة، إنها مادة ملائمة لتغذية أي محتوى اجتماعي وسياسي وكل ما له علاقة بالشأن العام، والأرجح أن اللقاء القادم سيفرِّخ سلالة جديدة من الملصقات والمقاطع المضحكة، لن يأخذكِ أحد على محمل الجدّ يمه، سِئليني أنا..

تنهَّدت خولة، مُسمِّرةً عينيها في الصَّحن مثل طفلة تتعرض للتوبيخ. لا تصدقي المعدَّة؛ قال يوسف. ستُسمِعُك ما تريدين، لكنها تريدك في البرنامج لأن النّاس تتسلى بانفعالاتك وتعبيراتك «**الغريبة**»، ستحصل القناة على آلاف المشاهدات، والمشاركات، والزّفت، ونحصل نحنُ على..

قاطعه ناصر:

- ليش البرنامج قوي؟

- شدرّاني؟!

التفت ناصر إلى خولة:

- المشكلة مو بالكلام اللي تقولينه، المشكلة في طريقتك.

ابتسمت خولة، عادت تقلّب الملعقة في الصحن. فهي تعرفُ مآل كلامٍ مثل هذا: إخضاع اللغة لقوانين السوق القاهرة، الجاذبية والظُّرف واليفاع الأبدي. لغة محقونة بالبوتكس ومضادات الأكسدة والوعود الكاذبة. يريدون منها أن تذيبَ الحقائق غير المريحة بماءِ الإيجابية المغشوشة، وأن تقدّم نفسها كشخصٍ يعرف أسرار النجاح، شخصٍ يملك إجابات مختصرة لأكثر الأسئلة تعقيدًا. تذكّرت قتيبة، ولغة قتيبة، وكوكبًا من الأطلال.

ضمَّ يوسف قبضتيه متوسلًا:

- تكفين يمه مو ناقصين..

وأضاف:

- الشباب بالديوانية ما يرحمون..

ولم تفهم خولة، كيف تحوّلت -هي شخصيًا- إلى أضحوكة، شأنها شأن تلك الجماهير الغفيرة التي تهز مؤخراتها على *تيك توك*، والتي تتمنى، أشد ما تتمنى، أن تصير أضحوكة.

نهضت من مكانِها وبدأت في لمِّ الصُّحون، كان وجهها قد انغمسَ في حزنٍ داكنٍ، وشعرت أنّها شاخَت عقدًا في دقيقتين.

حملت بعض الأطباق وتوجّهت إلى المطبخ لغسلها. فكّرت في حمد الذي تأخر، والذي لا يرد

على اتصالاتها، وخيِّل إليها أنها ترى نوعًا من الأسف في عينيّ ولديها. تبعها الاثنان، كلٌّ يحملُ من الصحون بقدرِ ما يستطيع.

سألها يوسف:

- ضاق خلقك يمّه؟

لكنها هزّت كتفيها، في لامبالاةٍ صُورية.

كانت حزينة، نعم، ليس على اللقاء، بل لأنّ ولديها -رغم فظاظتهما- كانا على حق، وشعرت بأنها المرأة الأخيرة في قارّةٍ تغرق على مرأى من الجميع. قارة تُفقد دون أن يفتقدها أحد.

كان أوّل ظهورٍ لخولة على الشاشة في ٢٠٠٥، وقد ألحق بمتواليةٍ مِن المؤتمرات والندوات والاستضافات التلفزيونية، لتتحدّث عن الهويّة واللغةِ وأطلالٍ أخرى. لكنّها لم تشتهر إلا بعد ثلاث سنوات، في ٢٠٠٨، بعد سنة من رحيل ناصر، والأرجح أنّ ما تسبَّب في شهرتها هو ذلك الريبورتاج الذي سبق البث: فصول من سيرتها الذاتية ترافقها موسيقى شرقية ثقيلة، لحنٌ حجازي حزين، ولقطات من أندلس متخيَّلة، آيات قرآنية مكتوبة بخط الثلث، لوحات لباعةِ سجاجيد «**رسمها رجالٌ بيض**»، ونوقٌ حمر تمخر الصحراء. كان المخرِج قد بذل جهدًا واضحًا في إعدادِ التَّقرير، «**ولكن في الاتجاه الخطأ**». أحسّت بأنّها واحدة من نساء ألف ليلة وليلة اللاتي يُجدن فك السِّحر ويُعدنَ العِجلَ، بإذن الله، غلامًا. ثمّ جاءت الحفاوةُ، شديدة المبالغة، من المُحاور الذي قدمها «كامرأة شرقية»، «**كما لو كانوا كلهم بيضًا**»، وكما لو كانت الناجية الوحيدة من أطلانطس الشَّرق المفقود. المشكلة هي أن أطلانطس، على الأرجح، لم توجد قط، وأن الشرق موجود، حتى خارج بلاط هارون الرشيد وقصص القماقم والعفاريت. لكنها لم تكن قد اكتسبت بعدُ نزقها، وتبرُّمها بالأسئلة المبتذلة والألقاب المجانية، ولم تعتَد مناكفة

المحاوِرين، فاحتفظت بأفكارها لنفسِها. ربما لهذا السَّبب وحده، أصبحت واحدة من المشاهير، مشاهير لا تشبههم ولا تحبّهم، لأنها تماهت في لحظة ضعفٍ مع «**المتخيّل الغربي عن الشرق الذي تبناه الشرق لنفسه**». وقتها، ربما، اتسمت أفكارها «**بالاعتدال**». لأنها كانت تأمل، بغباءٍ صرف، في أن يشاهدها ناصر على الشاشة ويشعر بالزَّهو، بل بالشوق، ويعود إلى البيت، مع أن لا علاقة لهذا بذاك، ولكن الإنسان ليس منطقيًّا على الدَّوام، «**لا في الشرق ولا في الغرب**».

سرحت خولة في ذكرياتها وهي تجهّز عشاء حمد، وضعت له شيئًا من كل شيء في أطباق لفّتها بورق الألومنيوم وحشرتها في السَّخان. جزءٌ منها كان ممتنًا لأنه تأخر، كيلا يراها تُذَلُّ من قبل أخويه. تتخيَّل خولة، لو أنه كان موجودًا، فالأرجح أنه لن يسمح بمهزلةٍ كهذه. فمن عادته أن ينتزع الهاتف من يدها، ويلقيه بعيدًا، كلما حدسَ أنها قرأت شيئًا ضايقها. وفكرت في أنه لو جاز للأم أن يكون لها ابنٌ مفضل، فهو قطعًا سيكون حمَد. لكن حمد لا يرد. وتساءلت: ما الذي يمكن فعله إزاء الاختزال؟ اختزالها شخصيًّا؟ عندما تحوَّل لقاء الساعة إلى مقاطع فيديو لا تزيد على ثوانٍ، وثار الناس على تويتر، أحسَّت بأنها تُسحلُ في شوارع افتراضية، بأيادٍ افتراضية، تتلقى صفعاتٍ افتراضية، وتُعلَّق

بقدميها في ميادين افتراضية، أو تركبُ بالمقلوبِ حمارًا افتراضيًا يطوفُ بها مدنًا افتراضية: بغداد افتراضية، وقاهرة افتراضية، ودمشق افتراضية، لتُقذَفَ بالبيض الافتراضي. لكنها مع مرور الوقت، نسيت ألف ركلة افتراضية في البطن، تسبّب فيها أولئك **«الأقزام عديمو الوجوه»**، والأسماء المستعارة، وخيانات الزملاء، و**«السرب اللّيبرالي الذي لا يعرف عن الهويةِ إلا أنها متحوِّلة»**، وكتّاب المقالات والناشطون **«والمهرجون والمستشرفون والمزايدون والسفلة»**. لكنَّها لم تستطِع، ولا للحظة، أن تنسى كيف صمتَ أبناؤها في تلك الأيام، كأنَّ أمرًا لم يحدث.

لقد نجح حمد وحده في ذلك الاختبار، لأنَّه كان في العاشرة فحسب، منتشيًا مع ألعاب الفيديو. وتعرفُ خولة أنَّها ليست عادلة في القياس، لكنَّها لا ترتاح إلا مع الابن **«الذي لم يكن يفهم حقيقة ما حدث»**، لكن لماذا تأخَّر؟

أُستغرِقت في الصَّمت وهي تريق الماء على الأطباق. حاول يوسف إزاحتها عن المغسلة، وتظاهر ناصر بأنه مستعدٌّ للمساعدة. كانت الشفقة التي أبدياها أسوأ بكثيرٍ من تضاحكهما عليها. ثم اتخذ ناصر لنفسه مقعدًا أمام عيدان الكزبرة. أخرج هاتفه من جيبهِ، وسيجارته الإلكترونية، في حين حاول يوسف أن يطيّب خاطرها بمزيدٍ من أخبار

التوءمين، لكن خولة كانت منخورة من الداخل، تحدِّق إلى الرغوة التي تتولد من دعكِ الصُحون بالإسفنجة وتفكر في حوض الأسماك الفارغ..

أراد كلاهما الانصراف، لكنَّ راسبًا من الذَّوق حال دون ذلك. كان كل شيء يقولانه يتحول إلى خرخرةٍ، ولم تكن ترحّب بلحظاتٍ مثل هذه، تحسُّ فيها بأنَّ باطنها قد انكشف على ظاهرها. اغرورقت عيناها بالدَّمع، وأملت ألا ينتبها، لكن يوسف حوّط كتفيها بساعدِه وقبَّل رأسها وقال: «بيعيني بالسُّوق يمّه»، وكانت تجدُ عزاءً في كلماتٍ من هذا النوع، كلمات تشبه قارَّتها المفقودة.

جفَّفت مقلتيها ومسحت أنفها بمنديل. علَّق ناصر بأنه لم يتخيل أنَّ الظهور في البرنامج يهمُّها إلى هذا الحد.

ثم سأل:

- قلتي لي اسم البرنامج «تفاصيل»؟

راحت أصابعه تجرُّ الشاشة نزولًا. رأت خولة حاجبيه يحلِّقان عاليًا. ثمَّ قال إنَّ مشاهدات الحلقة الماضية تجاوزت السبعين ألفًا. شغل إحدى الحلقات، أثنى على المَطلع: صوتٌ ذكوريٌّ عميق يقدم الضَّيف، صور من الطفولة، مقتطفاتٌ جدلية من الحوار. دنا يوسف من أخيه وأطلَّ على الشاشة. مرّر ناصر الحَلَقة دقائق إلى الأمام:

صوتُ امرأة تتحدث عن أبيها. لقطات عائلية مثالية، مثل إعلانات رمضان، حيثُ الكلُّ حول المائدة يمتلئ سعادة سماوية لحصوله على كأس «ڤيمتو». ورأت خولة -على نحوٍ لا لبسَ فيه- أن عيني ناصر قد زغللت وزاغت، كأنه بدأ في تخيُّل «**ظهوره الشخصي**» في برنامجٍ يتمحورُ حول «**أمّه الغالية!**».

وسألها:

- لحظة.. إنتي ليش هامّچ الموضوع؟

ازدردت ريقها، وتمتمت:

- عشان أبوكم.

وانفعل صوتُها وهي تضيف بأنَّهم يعيشون في بلاد لا تعرفُ رجالها، وأنّ الطلب الذي قدمته بشأن تسميةِ مكتبةٍ عامة باسمه قد قوبل بالتجاهل، ثم سألت الولدين: هل كنتما تعرفان أن أباكما يحفظ الشعر بعد سماعه مرة واحدة؟ وهنا ردَّ الاثنان: «الله يرحمك يا يُبه»، نظرت إلى وجهيهما دون أن تفهم، كيف لم يشب أيٌّ من أولادها شبيهًا بأبيه؟

غمغم ناصر:

- يعني السّبب شخصي بحت..

وعلَّق يوسف:

- شفيه «دكتور فِل»، شنو استجواب؟

وردَّ ناصر:

- ياخي لازم نفهم.

ثم قال:

- بس إنتي ما قلتي إنَّ البرنامج وثائقي..

- بلى، قلت.

- لا، ما قلتي.

- قلت لكم، برنامج حواري وثائقي..

وأضافت، سعيدة لأنها حصلت على فرصة المعاتبة:

- بس إنتو تخلّون الواحد يكمّل كلامه؟!

شحب وجه يوسف، كأنه شرع في تخيُّل نفسه في البرنامج، لكي تعرف البلاد كلها أنَّ تلك **«الحيزبون التي تُفرِّخ الميمات والملصقات»** هي والدته. هل يريدون ظهورنا على البرنامج أيضًا؟ هل تخيَّلت خولة ذلك أم أن منخريه قد انفرجا فعلًا؟ «خلاص ما في داعي»، قالت وهي تغلق الصنبور. ستتصل برندة وتعتذر عن الظهور في الحلقة.

عاد يوسف يسأل، مما يؤكد حقيقة أنه لا يسمع:

- منو رندة؟

- المعِدَّة.

وقالت خولة إن خطتها كانت أن يحظوا بعشاءٍ عائلي لطيف، وأن يناقشوا ظهورها في البرنامج، «**دون أن تتمسخر**»، ثم تتصل برندة وتطلب زيارتها في وقتٍ لاحق لشرب الشاي، ويستفسران منها عما يريدان، ثم يتخذون معًا، «**كعائلة**»، قرار قبول الفكرة أو رفضها. وأعادت القول - لأنَّ مرة واحدة لا تشفي الغليل - «بس إنتو ما تخلون الواحد يكمّل كلامه!».

وهنا بدأ ناصر في الهرشِ.

- لو قايلة هالكلام من أوَّل!

- قلت!

- لا، ما قلتي.

- والله، قلت!

ثم التفت إلى يوسف وسأله:

- قالت، ولا ما قالت؟

بدا يوسف مغلوبًا على أمره، اصفرَّ وجهه وتمتم «ما أدري»، فلوَّح ناصِر بيده: «إنت أساسًا ما خلّيت المرا تتكلّم!». أشار إليها بالمرأة، وليس بأمّي. شبكَ يوسف ذراعيه وسأل: «شاللي تغيّر ألحين؟» وجادله ناصر: لم تكن عندنا المعطيات الكافية للقبول والرَّفض، لقد قطعتَ الطريق أمام أي نقاش.

فأجاب: ما زال برنامجًا يبث على الفضائيات وينشر في المنصّات، لم يتغيّر شيء، وأنا لا أريد الظهور على الشاشة، ولا أريد لأمي الظهور على الشاشة، وبصراحة **«أنا لا أريد أمًّا مشهورة»**.

أحسَّت خولة بوخزةٍ في قلبها.

ناصر يرد: الأمر لا يتعلّق بك، ويجب أن نتخذ قرارنا بشكلٍ جماعيٍّ، ربما تكون هذه فرصة جيدة للدكتورة خولة سليمان. هكذا سمّاها هذه المرّة. وقال إنها فرصة، من الغباء التفريط فيها لترميم صورة والدتهما وإعادتها إلى الميدان على نحوٍ لائق؛ امرأة محترمة من عائلة محترمة. وتساءلت إن كان يلمّح بأنهم لم يكونوا قط تلك «العائلة المحترمة»، ثم عاد إلى نبرته الأبوية، وقال إنَّ عليهم -**«نعم، استخدم ضمير (هم) وليس (ها)»**- أن يكونوا أكثر حذرًا فيما يتعلق بالجانب الحواري، حتى لا تنقلب الأمور إلى الأسوأ. بل إنَّ **«عليهم»** أن يخططوا لما ستقوله خولة، فهذا البرنامج احترافيٌّ، وسيحضّرون أسئلة ذكية، ومن المنطقي أن تُسأل عن مواقفها السابقة، وهذه المرّة تذكّري. **«سنغيّر الإستراتيجية بالكامل»** لكن لا داعي إلى القلق، يمكننا العمل كفريق (!) والتحضير للحوار بشكلٍ جيد.

توجهوا إلى غرفة الجلوس لمواصلة النقاش، وأحسَّت خولة بنفسها تُجرُّ إلى الأريكة. كانت تنظرُ

إلى الضيق في وجه يوسف، إلى صمته، وتساءلت
إن كانت قد جنت على أولادها، وساورها إحساس
بالذنب لمجرد كونها هي.

مسحت عينا يوسف أبراج الكتب على الطاولات، قلَّب أحدها بين يديهِ متوجسًا من العنوان: أوديسا التعددية الثقافية؟ هل ستضيف أمه الآن كلمة «أوديسا» إلى قاموسها وتفضحهم؟ أرسل عينيهِ إلى الوسائد المنجّدة بقماش السَّدو، ولوحات حلمي التوني، والكراكيب التي جمعتها من البازارات: آلة كاتبة، غرامافون، مراويس، إسطرلاب، مجسّم سنبوك، بطاقات بريدية لأبواب جدّة القديمة، نسخ مصورة لطوابع فلسطين من ١٩٢٧، لوحة لعجوزٍ فلسطينية، تصرخ: إنكلعوا! وكاريكاتير ناجي العلي: «فلتسقط جارة كندا». كان دبيبُ التفاصيل يؤكّد أنَّ خولة، في أحسن الأحوال، كاريكاتور، لولا وجود مخلّفات العناية بالتوءمين: الدراجة ثلاثية العجلات، ومجسّمات الرجل الحديدي، وجوارب برتقالية فاقعة. ثبّت يوسف عينيه على حوض الأسماك الفارغ وأحسَّ بأنه مهزوم، وفكّر في أبيه، لو أنه ما زال حيًا، هل كان ليطلبَ من زوجهِ أن تقرَّ في بيتها؟ أم أنّه سيظهر بجانبها على الشاشة مردِّدًا «عِمي صباحًا دارَ خولةَ واسلمي»، وتخيَّل حوارهما الرومانسيَّ الضاحك، وأحسَّ نفسه ابنًا لاثنين من المعاتيه، يخلطان الشعر بالحبِ، والحب بالزواج، والزواج بالسياسة، والسياسة بكل شيء. يعرفُ يوسف ما سيقال في الدواوين لو أنَّ والده

ظهر إلى جانبِ أمه وكان على سجيّته. سيتحسّر الجميع على «غياب المرجلة»، وسيُقذف بالدياثة وانعدام الغيرة، وسيقول البعض إنه «خروف» وبهذا ستكتملُ القطعة الناقصة في «**أوديسا بهائم العائلة**».

ثم نظر إلى أخيه..

قال ناصر: First thing first

أسند كوعيه على ركبتيهِ وأطرق، ثم قال «**بإنجليزية بيضاء**» مطعمة بكلمات عربية:

- بالنسبة إلى حواركِ الأخير، ستقولين إنّك فُهمتِ على نحوٍ خاطئ، وأنّك لم تقصدي وصفَ الناس بالبهائم. بل كنت تقصدين القتلة الذين اغتالوا.. منو؟

يذكّره يوسف:

- الحلاج والبغدادي ومادري منو.

- إي هذيل.

لكنَّ خولة تتذكّر ما قالته جيدًا، ولم تكن لتصل إلى تلك النتيجة «**المستنيرة**» بأنَّ «الناس بهايم» إلا بعد أن أخبرت المذيع بأنَّ الإصلاح، إن كان هناك إصلاح، يجب أن يأتي «من فوق»، وناكفها المذيع عن دور المثقف، فقالت إنَّ دلالة المثقف العضوي قد أزيحت في «**الزمن الأمريكي**» لتحويله

إلى مجرد «**مغردٍ دبقٍ يصطَفُّ مع الجماهير، حتى لو كانت ضدّ نفسها**». نعم، تتذكّر خولة كل الأمثلة التي استحضرتها عن حكم الغوغاء: هيباتيا والحلاج وفرج فودة وأحمد البغدادي ونصر حامد أبو زيد. كانت تقدم نفسها وجبة سهلة للتكفيريين بضربِ تلك الأمثلة، وهم لم يضيعوا الفرصة طبعًا، لكنها لم تقصد القتلة فحسب، بل الجماهير في المطلق، تلك «**الكتلة الهرمونية الصّماء من البشر**»، آلهة العالم الجديد، الذين برهنوا على صحة رأيها بعد دقيقة واحدة.

انفرجت أسارير ناصر كما لو أنه أنقذ الموقف، وهزَّ رأسه موحيًا بحيرتهِ، وقال إنه لا يفهم حتى اللحظة لماذا جرت الأمور على هذا النحو، فهي لم تقُل شيئًا ذا بال.

جحظت عيناها: «**لماذا عاقَبها إذن؟ وهل سامحها الآن؟ ولكن على أيّ شيء!**» نخر يوسف: «لأنك ما تعرف ديرتك ولا تعرف الناس». ثم أشار إلى أمه برأسه. «الكويتي ما عنده شي يفتخر فيه إلا الديمقراطية مالته، وأمك طقَّت الديمقراطية بنعال». ابتسمت خولة، فقد أعجبتها الاستعارة.

تمتمت:

- المذيع ما خلّاني أشرح.

أسند يوسف ذقنه إلى راحته اليمنى مستَفَزًّا:

- تفضلي دكتورة شرحي..

وضعت خولة ساقًا فوق أخرى ورفعت حاجبًا:

- بعد سبع سنين؟

هبَّ ناصر وأعاد التعبير الأمريكي المبتذل: «أن تأتي متأخرًا خير من ألَّا تأتي أبدًا»، وتساءلت لماذا لا يقول ولو مرة كلامًا يخصُّه، حتى أنها وجدت في قلبها سرورًا بالغًا عندما ردَّ يوسف بانفعال: «لا، حبيبي، ساعات أحسن ما توصل خير شرا». ثم نهضَ من مكانه، وأخرج سبحته من جيبه -وهو ما يفعله عندما يتوتّر- وسأل: «من زين السالفة عاد؟».

ولم تفهم لماذا يتصرّف كما لو أنَّ الأمر برمتّه غلطتها، رغم أن هناك أسبابًا أكثر إقناعًا لتفسير ما حدث. أولها الإفراج عن بضعة متّهمين بسرقة المال العام لعدم كفاية الأدلة. وهو ما يعني أنَّ الجماهير كانت في حاجة إلى مكبِّ تفريغ. وثانيًا أن من أطلق الوسم على تويتر هم مجموعة حسابات وهمية للتمويه على وسوم حقوقية ومطالب سياسية. والسبب الأهم، بزعم خولة، هو أنَّها امرأة، وأن المجتمعاتِ **«تجوعُ بشكل موسميّ لحرق امرأة بتهمة الشعوذة أو إلقاء عذراءَ في النهر»**، لكنها لو قالت شيئًا من هذا القبيل سيجنُّ جنون يوسف.

نظر ناصر إلى خولة وسأل:

- شفيچ ساكتة؟

تلكأت قليلًا، ثمَّ قالت مترددة:

- هذي أول مرة نتكلم فيها عن اللي صار..

تحشرج صوتها، وأحسَّت نفسها مليئة بالعتب، فقد امتلكت فجأة شرعية العتب.

تضرّج وجه يوسف:

- مو يا يمه يا حبيبتي ماكو شي ينقال!

اغرورقت عيناها.

- ماكو شي ينقال؟ ولا حتى محشومة يمّه؟

وبدأت خولة، لأوّل مرة، في البكاء.

كان بكاءً يشبه التقيؤ، ترجرجَ جسدها جميعه، وبدت كمن يكابدُ ليحوِّل صراخًا قديمًا إلى حازوقة، لكنَّ البكاء المتحفِّظ ما لبث أن انفجر إلى نحيب، وأحسَّت أنها تغتسل عن الصَّمت الذي تكلّس على جلدها لسبع سنوات. حاوطها يوسف بذراعه وقبَّل رأسها: «سامحيني يمه.. أنا حمار» في حين تشنّج ناصِر، ولم يدرِ ماذا يقول، نهض يبحث عن علبة مناديل، ناولها خولة وهو يقول: «محشومة» مستعارة من كلامِ أخيه، ودون أن يردفها بكلمة «يمه». وفي تلك اللحظة أحسَّت خولة بأنَّ **«الهدف من العشاءِ العائلي قد تحقق!»**، وأنها مستعدة لمغادرة الولدين والعودة إلى سريرها الدافئ. ستلتقط صورة عائلية في المرة القادمة،

فهي لا تريد أن تظهر بعينين متورّمتين، وحمد لم يصل بعد. همّت بالنهوض واستئذان الاثنين للانصراف، لكنَّ ناصر استوقفها، وقال مخاطبًا أخاه: «هذا البرنامج لا يتعلق لا بي ولا بك، بل بخولة، إنها تستحقُّ هذه الفرصة، وسبع سنوات من العزلة هي ثمن أكثر من كافٍ على الأشياء التي قالتها، وهي عقوبة غير مستحقة على أفكارها مهما اختلفنا معها».

ورغم أنها كانت المرّة الأولى التي يتولى فيها بكرها عملية الدفاع عنها، ورغم أن خولة تتذكّر كيف **«استثمر ذلك اللقاء لينقطع عنها سنتين»**، فإنَّ ما أثار غثيانها تحديدًا هو قوله: **«مهما اختلفنا معها»**، فهو **«لا يملك شرعية الاختلاف مع أيّ شيءٍ تقوله»** لأنه ببساطة **«لا يملك أفكارًا تخصّه، وكل ما يفعله هو إعادة تدوير لأشباه أفكار الآخرين»**، وفوق هذا كان يظنُّ نفسه **«مقطّع السمكة وذيلها»**، لكنه لا يعرفُ شيئًا عن شيء، وتساءلت ماذا عساها تفعل، إزاء ابنٍ بلا أفكارٍ تخصّه، في حين أن أفكارها «الفوضوية والمتطرفة» للبعض و«السلفية المتخشبة» للبعض الآخرِ كانت، في نهاية الأمر.. أفكارها.

ولم يخطر ببالها، أنَّ البكاء الذي بكتهُ سيفسحُ مكانًا لمشاعر جديدة، كأنها امتلكت فجأة حقَّ الغضب من **«الولدين»**، وراحت تجول بعينيها على

وجهيهما بإحساس عارمٍ بالخذلان: الأوّل «**مسخ فرانكشتاين أمريكي**»، والثاني «**زائدة دودية في أمعاء الدولة الريعية**»، وفكّرت في أنّ من نكد العيش، حقًا، أن يكون أمثال هذين قضاتَها في هذه الدُنيا. ولعنت «**الديمقراطية حارسة الحماقة**» في سرّها، لكنها لم تقل شيئًا مما فكرت فيه فعليًا، بل سألت ناصر:

- إنت أساسًا عندك استعداد تطلع في الحلقة؟

- Sure.

وسألته عن الأمر الوحيد الذي يهمّها معرفته في هذا العالم:

- شنو بتقول إذا سألوك عن أمّك؟

أطلق يوسف من حنجرته صوت «هع!» ثم فرقع أصبعيه، وقال:

- جاوِب!

أمال ناصر رأسه إلى الوراء، مبرزًا ذقنه ومقطّبًا قليلًا، وتمتمَ: سأقول الحقيقة. وما هي الحقيقة؟ سأقول إنني وأمي تجمعنا علاقة جيدة، وأن لدينا «حدودًا صحية» قائمة على الاحترام المتبادَل.

- يعني راح تتكلم عشر ثواني؟

قهقهَ يوسف وصفّق.

قلب ناصر عينيه ناظرًا إلى السَّقف. عصر ذاكرته للعثور على ذكرى مضيئة في علاقتهما التي تتمتع «بحدودٍ صحية» و«احترام متبادَل»، قافزًا على الرفض المتبادَل والنفور المتبادَل وتاريخ طويل من الخيبات المتبادلة. امتدَّ شريط الذكريات أمامه وعرف أنه لا يستطيع التفوّه بكلمة صادقة واحدة في ذلك اللقاء، كأن يقول إنه فرَّ من أمّه وأمضى نصف عمره هاربًا منها، وأنه لم يشعر مرّة بأنه محبوب، أو حتى «مقبول» بالحد الأدنى، ولا يستطيع، للحظة، أن يكون نفسه، وأنها لو عرفته أكثر، لو عرفت حقيقته، من هو عليه وما هو عليه، لكفّت حتى عن محاولاتها المسرحية للتصرف كأم.

ثم لمع خاطرٌ في داخله عندما تذكّر الموقف الوحيد الذي أحسَّ فيه أنَّ أمه **«تقف إلى جانبه»** فعلًا:

- ممكن أقول موقِف من طفولتي.

- أي موقف؟

- موقفك من مِس «بوبي» مثلًا.

ارتفع حاجباها غير مصدّقة: مِس بوبي؟! امرأة بيضاء فظة، ورغم ذلك هي معلّمة ممتازة. طلابها يُحرزون أفضل تحصيلٍ علميٍّ في المرحلة المتوسطة. ناصر في الصَّفِّ السَّادس. لكن مِس بوبي في الأسبوع الدراسي الأول ستمزق

ورقة من دفتره أمام أصدقائه وهو ما تفعله مع الجميع. «**امرأة منسجمة مع نفسها ولا تدّعي اللطف»**، سيرفض الذَّهاب إلى المدرسة في اليوم التالي ما لم يُنقل إلى فصل آخر. ستتوجّه خولة إلى المدرسة لتثير فضيحة مع الاختصاصية الاجتماعية إزاء أسلوب مس بوبي *غير التربوي*. سيُنقل ناصر إلى فصل مستر «كين» الذي يعاني ثقلًا في السمع ويتحدث بسرعة الحلزون ويحب منح الدرجات العالية، وهكذا سيعتاد ناصر الهرب طوال حياته.

لم تكن تلك بالضبط، الذكرى التي تتمنى من بِكرها استدعاءها والحديث عنها في اللقاء، وإذا لم تكن هناك ثمة ذكرى أفضل يستطيع استحضارها، فهي تريد أن تعرف:

- وإذا سألوك عن رايك في أفكار أمّك؟ في مقالاتها؟ في مواقفها؟

كانت سعادتها بالغة وهي تقول «أمك»، لكنها لا توازي سعادته بالسؤال السهل، لأنه يملك إجابة جاهزة.

- سأقول إننا عائلة ديمقراطية تحترمُ التعددية..

- تقدر تقولها بالعربي؟

- إي.. بقول إن اختلاف الودّ لا يفسد..

يصحّحُ له يوسف:

- اختلاف الرأي..

- إي هذي.

غطى يوسف وجهه براحته وقال:

- عزّ الله انفضحنا.

ثم وجّه سؤاله إلى أمّه؟

- هذا اللي تبينه؟ ولدچ ما يعرف يقول كلمتين على بعض..

نكّست خولة رأسها، مثل راية هزيمة.

هكذا هو الأمر إذن، سيرى العالم كله «**باب النجار المخلوع**»، مدهونًا بالورنيش، لامعًا وصقيلًا.

لم يفهم ناصر كيف انقلبَ الأمرُ عليه فَجأة.

وفكّر في أنَّ خولة، لو تمتَّعت بالحدِّ الأدنى من الموضوعية، لعرفت أنَّه الابن الوحيد الذي يُمكنها أن تفاخر به أمام الآخرين، لأنه لم يشبّ ليصير **«بصّامًا»** في **«وزارة الفلافل»**، أو مُدمن ألعابِ فيديو، وهو لا يتجاهل مكالماتها على الأقل، عوضًا عن كونِه الوحيد الذي حاول أن **«يصنع من نفسه شيئًا»**، لكنَّ الحقيقة أنها لم تحبُّه، بل لا تحبه، وقد يترفّع عن الرد على اشمئزازها المبطّن من هيئته، واحتقارها لمساره الوظيفي، وسخريتها المسمومة من آرائه، لكن ليس إلى درجةِ أن تتصرّف كما لو كان هو وصمة عار هذه العائلة، لا هي، وحتى قبل أن يتلعثم، ويتحوّل الموقف برمّته إلى تنمّرٍ بواح بسبب عربيّته الركيكة، التي هي خطؤها من الأساس، كان على وشك أن يغفرَ لها كل شيء، بل ويُدافع عن كل كلمةٍ قالتها، إذا ما أعطته فرصة الظهور في البرنامج.

إنها تتناسى دائمًا حقيقة أنها تخلّت عنه في أصعب أيام حياته، وما لا يفهمه ناصر، أنه اضطرَّ بعد وفاةِ والده إلى أن يفقد أمَّه أيضًا، أن يتيتّم من الجهتين. تركته خولة في رعاية جدَّته شهورًا دون أن تتَّصل، كأنَّها سُرَّت بالتخلّص منه. والأرجح

أنها كانت تنتظر أن يجيء معتذرًا، وقد انتظر هو الشيء نفسه، لكنه كان مجرد ولد، في حين تحصَّنت هي بكلماتٍ جاهزة عن البرِّ بالوالدين وطاعة الأمَّهات، ونسيت أن تكون أمًّا. انتظر ناصر كل ليلة أن تطرق الباب وترجوه أن ينسى ما حصل بينهما ويعود إلى بيته، فقد اشتاق إلى غرفته وأخويه، اللعنة، بل واشتاق إليها، لكنها عندما فعلت، كان قد فقد الرغبة في العودةِ، ولم يسمح لها بانتزاعه من عالمِه ثانية، ويبدو أنَّ يوسف على حق، الوصول المتأخِّر أسوأ من عدم الوصول.

ما زال يتذكّر رؤيتها في الأعياد، وفي زيارات العائلة، ممسكةً يوسف بيد وحمد بالأخرى، وكيف كانت تقبّله على خدَّيه وتسأله عن أحواله وكأنه لا يخصُّها. عرفَ منذها أنه «فرخ البطِ القبيح» الذي شبَّ بلا أم، وأمضى عمره كلَّه ينتظر أن يتحوّل فرخُ البط هذا إلى بجعة -على سبيل الانتقام- دون أن يفلح. أرادَ أن يُقصيها من حياتِه ليتحرَّر من الألم، لكنها لم تسمح حتى بذلك، ثمَّ رآها على التلفزيون، تخصّه بالإهانات من بين الجميع، يومها اتّصل بجدَّته صائحًا: «أخبرتكِ أنها مجنونة!»، ولم يغفر لها أنه رغم ما بذله من جهد لإبقائها على مبعدة مسافةٍ كافية، كانت ما تزال قادرة على إيذائِه.

ولو كانت خولة أكثر ذكاءً بقليل، لعرفتْ أن

يوسف **«هو الأكثر شمّيّة في هذه العائلة»**، وأنه يهيمنُ عليها مثل أي رجلٍ شرقيٍّ، وأنَّ كلَّ شيءٍ يفعله هو ضمان ألا تتحرك خارج المربّع الذي رسمه لها، أي خارج المطبخ.

أراد ناصر أن يغادر، لكن يوسف بدأ يهزُّ كتفيه مثل راقصة شرقية، مطقطقًا بأصابعه وهو يردّد: **«اختلاف الودّ.. الودّ، الودّ، الودّ»**، و**«السّح الدّح إمبو»**، ما جعلَ ناصر يصبُّ عليه سبابًا قاذعًا، حتى أنَّه قال لأخيه -بالإنجليزية- يا ابن العاهرة..

.. وبعد رشقاتٍ متبادلة من الشتائم صاحَ ناصر: «إنت على شنو مصدّق نفسك!»، وأجاب يوسف بأنّه «مصدّق نفسه» لأنّه يعرف الأصول، وعنده «شوية سنع» ولأنه «يحشم أمه»، ولا يبدو رأسه مثل «البروكلي». وأجاب ناصر بأنَّ كنّاس الشوارع له قيمة تفوق قيمة أخيه **«الطُّفيلي»** الذي لا يفعل شيئًا ولا يريد أن يفعل أي شيء، وأنَّه لن يضيره أن يتواضع قليلًا، هو وكل من يشبهه **«في هذا المكان الدمويّ»**، ويعترف بأنّه شخص مليء بـ**«روث البقر»** وبإحساسٍ غير مبرر بالاستحقاق نظرًا إلى كونه **«قطعة من خراء»**.

وهنا زجرتهما خولة:

- خلاص! كل واحد يرجع بيته!

وأضافت:

- أنا أساسًا اعتذرت من يومها..

- اعتذرتي؟

سألها يوسف:

- عيل ليش قلتي في موضوع مهم نتناقش فيه؟

وأحسَّت بأنّها تقفُ هزيلةً وعارية، بين القدور، في متخيَّلٍ نابض لـ**«عيد شكرها السعيد»**، نابتًا

من صحراء أمومتها المترامية، حيثُ الصّمت أكثر بكثيرٍ مما يجب، وحيثُ خولة تأكل وحيدة.

تحشرج صوتها واغرورقت عيناها، ثبتت نظراتها إلى حوض الأسماك الفارغ، وقالت:

- اعتذرت لأني مو ناقصة فضايح..

أعاد ناصر الكلمة:

- فضايح؟!

وأضاف:

- أكثر من فضيحتنا فيـچ؟

- استخ!

قالت.

وكانت قد سئمت كونها الملامة على كلِّ شيء، وأنهكها الطّوق اللعين حول عنق الكلبةِ، ومن اضطرارها الأبدي إلى أن تظهر رديئة وزائدة إن لم نقل مؤذية. أحسَّت بالدم يفورُ في عروقها، من **«الشيطنة التي تمّت هندستها بعناية»** والتي تشرّبها ولدها لسنوات. جاشَت معدتها، وأحسَّت بحموضة في البطن، وفكّرت فيما تؤول إليه الولائم الدسمة بالنسبة إلى جسدٍ يشيخ، وأرادت أن تولول، لأنَّ **«أسوأ ما يمكن أن يحدث للأطلال ألا يبكي عليها أحد»**، لكنها كشّرت عن أنيابها وقالت بصوتٍ مبحوح:

- آخر عمري أصير مسخرة لأن ولدي الأول ما يعرف يقول كلمتين على بعض. وولدي الثاني مستعرّ مني، والثالث مو معبّرني خير شر.

اغرورقت عيناها وهي تتذكّر حمد.

«حشى يمه والله!»، قال يوسف موشكًا أن يعتذر، في حين ضحك ناصر وقال: «**واو!**» وصفّق يحيي لوالدته على «**أدائها المسرحيّ البارع**» ثم سأل:

- ألحين صرتي إنتي اللي مستحية منا؟

وأضاف:

- إنتي متى تفهمين.. إنَّ إذا في أحد من عيالـچ رافع راسـچ، فهو أنا؟

ضحكت، والدُّموع تسيلُ على خدّيها، وطوّحت بيديها:

- ياخي والله زمن ملعون..

همس يوسف:

- لا تسبّين الدهر يمّه!

خولة:

- اسكت واللي يعافيك..

نهضَ ناصر من مكانه متأهبًا للمغادرة. امتلأ داخله بالغبنِ بعد أن «**تم استدراجه**» إلى مناسبة

كاذبة، بل واستنطاقه والسُّخرية منه لأنه صدّق خدعة الوثائقي، وفكّر في أنَّه لن يعود إلى **«هذا المكان اللعين»** ثانية، وأنَّ علاقته بمن فيه قد انتهت، وأنَّ الوقت قد حان ليقول **«حقيقة ما يفكّر فيه»**. ارتسمت نصف ابتسامةٍ على وجهه، جريحة ومكسورة، ونظر إلى عينيّ خولة وسألها:

- إنتي ليش مصدقة إنـچ أم؟

انتصبت خولة ومدَّت سبّابتها إلى وجهه، خرج صوتها ضاريًا:

- أنا أم غصبٍ عليك!

لم يتوقع ناصر أن يرتجف صوته، وأن يبدو مثل طفلٍ في السادسة، أن يعترف لأمّه بأنها أعطَبته.

- يمكن أم يوسف، يمكن أم حمد.. أشِك، بس يمكن، الأكيد مو أمّي.

حوقلت خولة، التفتت ناحية يوسف وخرجَ صوتُها مشروخًا: «شفت أخوك شلون يكّلمني؟».

زأر يوسف:

- احشم نفسِك لا أربّيك.

تجاهله ناصر، وجّه كلامه إلى خولة:

- أنا خوش ولد، أي أم ثانية راح تحس بالفخر، بس إنتي طول الوقت تدورين فيني عيوب، كل

شي فيني تشوفينه غلط.. وآخرتها تلعبين دور الأم المجروحة؟ ألحين صرتي انتي المجروحة؟!

قلّب يوسف السبحة بين أصابعه شاخصًا بصره إلى أخيه:

- إي حبيبي كل شي فيك غلط، شنسوي لك يعني؟

وتدخَّلت خولة:

- يوسف اسكت!

وكانت تلك أوّل مرة يبدو فيها بكرُها هشًّا وضئيلًا وموشكًا على البكاء. وأرادت أن تضمّه لكنّها تجمّدتَ في مكانها ولم تدرِ بماذا ترد. ألا يقول الحقيقة هذه المرة؟ حقيقة أنها أحبّته **«على طريقتها الجاسوسية الشاذة»** وليس كما يحتاج؟ ولكن بأيّ شيء تفيدُ تلك القوائم اللانهائية من الحقائق الخائنة؟ حقيقة أنّه كان فأرَ التجارب الأوّل في مختبر أمومتها الفارغ، وأن جُرحها يصبح لامرئيًا أمام جرحه، وأن «شرطها البشري» ينهار تحت اشتراطاتِ أمومتها، وأنها «تعرف ما تقدر عليهِ وما لا» وأنها لا تقدرُ على نسفِ كل ما تعبت في بنائه: كل شعرة بيضاء في رأسها، كل جعدة أسفل عينيها، كل فكرةٍ متطرفةٍ وكل استعارةٍ شاذةٍ وكل طللٍ في القلب، من أجله، وحقيقة أنَّ الحبَّ مشروطٌ مشروط، وأنهم كذبوا في هذا الشّأن، وأنَّ

العالم غير عادل، وأن سوء الفهم حتميٌّ وعلى ما يبدو: أبديٌّ جدًّا، ولم تكن تعرف، أين ينتهي دورها كأم وأين يبتدئ شرطها كامرأة؟ وماذا عساها تفعل بالتضاربِ الوحشيّ بين الاثنين، في كونها تريدُ استعادته تحت جناحها مثل كتكوتٍ مبتلٍّ، وفي كونها لم تغفر له قط أنه كان «**ابن مكانه المسخ في زمنه المسخ**»؟

وخرج صوته طفوليًا ودامعًا ومكسورًا عندما قال:

- إنتي أصلًا ما تحبّيني.

«والله أحبّك».

قالت، وأردفت:

«والله العظيم».

ووجدَت قَسَمها غير كافٍ، فأضافت:

«ودفنة أبوك الغالي»

وفردت يديها كي تضمّه إلى صدرها، وسيكون هذا أعظم ما حصل في حياتها على الإطلاق، حتى لو قضت بقيّة أيامها تأكل وحيدة.

لكنَّ يوسف قاطعها:

- ما عليـچ مِنه يُمَّه!

كان جالسًا يُصالب ساقًا فوق أخرى، سبحته بين أصابعه. رفع سبَّابته إلى وجه أخيه، وببرودٍ مصطنع قال: إنَّ السبب الحقيقيّ لاهتمام ناصر بالبرنامج وموافقته على عودة أمه إلى الشاشة، أنه يريد نصيبًا من شهرة أمه، لأنه حتى هذه اللحظة لا يحصل على أي مقابل مادي نظير كل تلك الإعلانات التي يقدّمها إلى الشركات بالمجّان، وهو لا يملُّ من خلع سرواله كالعاهراتِ لأربابِ المطاعم والنَّوادي الصِّحية وعيادات الأسنان، بدعاياته المتملقةِ الغبية، دون أن يحصل على عقدٍ واحد،

وأنه يحاول منذ سنوات أن يتحوّل إلى مؤثّر، **إنفلونسر** حقيقي، بس «القبول من الله ياخي وإنت ويهك ما ينبلع».

ثم نظر إلى أمه:

- عرفتي ألحين ليش هامّه البرنامج؟ صار له ساعة يحاول يقنعـچ توافقين.. عرفتي ليش؟

ثم نظر إلى أخيه، وارتسمت على وجهه ابتسامة مظلمة:

- ياخي شكثر إنت تافه ورخيص!

وفي غمضةٍ وثبَ ناصر من مكانِه واشتبك الاثنان بالأيدي، قبضَ كلٌّ على ياقةِ الآخر وانهالَ عليه ضربًا وشتمًا وبصقًا. أخذا يلهثان مثل كلبينِ، وقد ركض كلٌّ في مضمار كراهيته الخاصة. وعرفت خولة أن الصَّمغ الذي يجمع أفراد عائلتها هو الادعاء، لا الحُب.

حشرت جسدها بين الاثنين، وجذبت يوسف بزندهِ لتبعده عن ناصر، لكنّ يوسف حمل الدراجة ثلاثية العجلات وألقاها على أخيه. أحسَّت بقلبها ينخلع من مكانه، تقهقرت إلى طرفِ الصالة وهي بالكاد تنتزعُ أنفاسها، يداها فوق رأسها، وبعينين مذعورتين رأت تطاير الأشياء: الوسائد والكتبِ وإستكانات الشّاي وحبّات الفستق، أحسّت بركبتيها تخوران فأقعت عند حوض الأسماك، وراحت تصرخ

في الولدين -**«ما زالا ولدين»**- كي يكفّا عن العراكِ.

التفتَ يوسف إلى أمّه فرآها تغطي رأسها بيديها، كان وجهها قد ازرقَّ واحمرّت عيناها. كان لحظتها يثبّت شقيقه إلى الجدار، لأن ناصر برخاوته لم يكن ندًا لقوته. سمع أمّه تنتحب: «حرام عليك أخوك!»، فسألها: حرام عليّ؟ معوّر قلبچ ولدچ؟ وبعدين معاچ يمه؟ متى تتعلّمين؟ وصاح بأن ليس من حق ناصر المطالبة بشيء، منذ أن غادر البيت وتركه وحيدًا مع أمّه الأرملة وحمد ما زال في سنتهِ الثانية. كانت العروق قد نتأت في جبين ناصر وعنقه، وأخذ يكابد كي يتفلّت من قبضة أخيه، وردَّ بصوت مكتوم، وقد دسَّ الـ F word بين كلمة وأخرى - أنَّ على أخيه أن يكفَّ عن ادعاء الاهتمام بمصلحةِ أمه أيضًا، لأن جُلَّ ما يريده هو مربية وطباخة بالمجّان وسكن بلا إيجار.

صاح يوسف:

- طالع لك لسان أشوف؟

وأضاف أنَّ أخبار أخيه المخنّث تعرفها البلاد كلها، في الشاليهات والمواخير والشُّقق المشبوهة، وأنه تستّر على عهرهِ طوال سنوات إكرامًا لأمه وذكرى أبيه، وأنه سيقتله بيديه هاتين إذا رآهُ في البيت ثانية، ثم جرجره إلى الباب وألقى به خارجًا، والتفت إلى أمِّه وقال لها: أنتِ السبب، «إنتي ما

عرفتي تربّين»، وقال: «والله إن شفته بهالبيت مرة ثانية راح أذبحه» وقال: «يبي يصير مشهور اهو الثاني، عشان نكمِل»، وقال أشياء أخرى لكن خولة كفّت عن السماع، لأن رأسها بدأ في الطنين، صوتٌ رفيع متصل غطى كل شيء، فأضحى الكلام جعجعة ورطانة.

شخصت بصرها إلى تصاعد الفقاقيعِ، وتمازج ألوان الطحالب، أحسّت بأنها تطفو خارج جسدها. شعورٌ مفارق، علويٌّ، شاهق. كأنَّ كوّة قد انفتحت في نسيج الزمن لترى ما ستكون عليه بقية أيّامها في اليباب، وفكّرت في كل الأطباق التي لن تعدّها، والمقادير التي لن تشتريها، والأطقم الجميلة التي لن تضطر إلى استخدامها قط.. ورأت نفسها في الغد، واليوم الذي يليه، والذي يليه، والذي يليه أيضًا: حياة مديدة قاحلة، حيث البيث فارغ جدًّا، وخولة تأكل وحيدة.

خرج حمد من ملعب البادِل متوجهًا إلى الديوانية للعبِ شوطي «فيفا»، فصادف على الرّصيف صبيًا يمنيًا في التاسعة، يبيعُ أسماكًا للزينة، ألوانها بين الأحمر والبنفسجيّ والأبيض، بزعانف مشرشرةٍ ومتباهية، تعومُ في أحواضٍ بالغةِ الصغر، لأنها، كما شرح له البائع، أسماكٌ «مقاتلة» شديدة الشراسة، لا يمكنُ جمعها في حوض واحد. اشترى سمكةً حمراء بثلاثة دنانير وتوجّه إلى الديوانية. وهناك تربّع أمام الشاشة قابضًا على عصا التحكّم، ولعب شوطيّ فيفا، لكنه لم يأكل ولا حتى سندويشة شاورما واحدة، لأنه يعرفُ أنَّ والدته قد أعدّت له عشاءً أطيب.

عندما عاد إلى البيت، كانت السَّاعة قد قاربت الحادية عشرة والنِّصف ليلًا. وجد الأضواء مطفأة، والهواء مثقلًا برائحة الطّبيخ، وما من صوتٍ سِوى الهديرِ المكتوم لانبعاثِ الهواءِ من فتحات التكييف، وبقبقة الفقاقيع في حوض الأسماك الفارغ. تعثّر في مشيه ببعض الوسائد. أشعل الإضاءة، وضعَ حوض السَّمكة الجديدة على الطاولة أمامه، وانتبه لوجود دزينةٍ من الكتب على الأرض، وزجاجٍ مكسور من إستكانات أمّه الشفافة، ومكعبات سكّر، وقبيلة نمل، وكثيرٍ من حبات الفستق، وشيء اتضح لاحقًا أنه سيجارة إلكترونية.

أخرج هاتفه من جيبه، ورأى عددًا هائلًا من الاتصالات التي لم يرد عليها عامدًا. لم يكن في نيّته أن يحضر العشاء، لكن المفاجئ هو الإشعار بخروج ناصر من مجموعة الواتسآب المخصصة للإخوة الثلاثة.

توجّه إلى غرفةِ أمّه. فتحَ الباب ببطءٍ وأحسَّ برطوبةِ الهواء في الداخل. كان الظلام دامسًا، والتقط أنفه رائحة دهان «أبو فأس» وفوْح شاي الزعتر. بمساعدةٍ من ضوء هاتفِه، رأى جسد أمه ممدّدًا على جنب، ورأى العُصابة التي تلفّها حول رأسها عندما يداهمها الصداع، كما رأى شريط «الزاناكس» مرميًا على سطح الكمودينة، قريبًا من المصحف.

استبعد فكرة إيقاظها كما يفعل عادةً عندما يجوع، انسحب خارج الغرفة وأغلق الباب وراءه بهدوء، ثمَّ ذهب إلى المطبخ ومنه إلى السَّخان ليستخرج منه عشاءه، ورغم الطراوة السخية في قطع الدولمة أحسَّ بقلبِه يثقلُ وأنه قد أخطأ في أمرٍ ما. أكل لقمةً أخرى ثم فكَّر في السمكة الحمراء، وكم ستسرُّ بحوضٍ أكبر، وأنَّ أمه ستسعد إذا استيقظت في الغد لتجد سمكة في حوضها.

عاد إلى غرفة الجلوس، التقط الحوض الصغير ثم سكبَ ماءه في الحوضِ الزجاجي، انزلقت السمكة

معه. جلس سارحًا في الماء والفقاقيع ورفرفات الزعانف الحمراء المعشّقة بالرمادي، ثمَّ نظر إلى هاتفه، متسائلًا عمَّا حدث.

فكّر في الاتصال بشقيقيه لكنه قرر تأجيل الأمر إلى الغد، وخطر له أن يعود إلى المطبخ، ويلتقط لنفسه «سيلفي» مع العشاء الذي ادَّخرته له أمّه ويرسلُ إليها: «تسلم إيدچ يمّه».

ردَّ على الرسائل التي أجَّل أمرها. ثم بدأ النعاس يساوره فقرَّر أن ينام، نهض من مكانه، وعندما وضع يده على مفتاح الضوء، ألقى نظرة أخيرة على السمكة مسرورًا بهديّته الصغيرة، لكنَّه لم يفهم ما رآه. اقترب من الحوضِ حتى ألصق وجهه بالزجاج، وبحلق غير مصدّق؛ كانت السمكة طافية على بطنها، ميتة جدًّا، لا تتحرَّك فيها زعنفة واحدة..

تمت

يناير ٢٠٢٢ - إبريل ٢٠٢٣